الداء والدواء

لقلوب أهل الجهاد

جهاد محمد حسن

بيت المقدس

الداء والدواء

لقلوب أهل الجهاد

تأليف

جهاد مُحَّمد حسن



بيت المقدس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما.

أما بعد .. فبعد عقود من تجذر الجهاد في صميم هذه الأمة وتوالي الأجيال المرابطة في مختلف الأمصار بهمّة .. لاشك أن سجل التجارب الجهادية أضحى زاخرا.. والعلم بأنواع النفوس البشرية المقبلة بات عميقا.. قد شخّصت الأمراض والأدواء وعرفت العلاجات والاحترازات .. كل ذلك يعرفه المخالطون لألوان البشر.. من مهاجرين وأنصار.. في ميادين الهجرة والجهاد... ولكنه لا يزال خافيا أو مبهما لدى الغافلين عنه والحدثاء.

وإن كان الحديث عن الأمراض في ميادين الجهاد باب حساس ينتقده البعض كونه فرصة سانحة للمرجفين لبثّ التخذيل والتهويل.. إلا أن النظر في ما ينتظر هذه الأمة المسلمة من مواجهة واشتداد أوارها.. ليدفع بالضمير لتدوين التشخيصات والعلاجات التي يستعين بها كل مقبل جديد ينأى بنفسه عن السقوط في وحل التبديل.. أو الارتداد والتراجع.. كما قد تنفع المرابطين لاستدراك ما فات والتعويض

والتطعيم ضد كل آفة أو مرض للقلب قاتل. ينقض معه الغزل وتنحدر معه النفس ويؤذى به القريب وتتشتت معه الصفوف.. فيتسلل الوهن ويضعف الحصن ويستغل ذلك الأعداء فيمكرون لتوسيع الهوّة وتبشيع القدوة وتشتيت الهمة وتنفير الأمة ثم نبكي نحن على أطلال المجد وهدم بنيان النصر.. وهكذا تكون فزيولوجيا المرض.. ينطلق من مرحلة إلى مرحلة ومن شدة لأشد.. فإن لم يتداركه المريض بالعلاج وتتداركه رحمة الله بالإيجاب.. وإن لم يقم الدعاة بدورهم على أكمل وجه وإن لم ينبر المصلحون بكل كدّ.. استفحل وقضى على الجسد بعد أن قضى على القلب!

ثم لا شك أن الخلل يقع بتراكم الأخطاء وازدياد الاختلافات .. ما يسبب بطؤا في السير وتهديدا للأمن قد يعصف بالتضحيات والعطاءات والإنجازات الجمّة فيرديها أطلالا وذكريات هشّة .. وحين نفتش عن تلك القلوب خلف هذا المشهد نجدها قد تشربت القسوة.. وامتهنت التهوين.. وكذا التسويف.. ومنها التي تغرق في النقد والشكوى واللوم فتزيد الطين بلة بسلبية نكدة.. ويتعقد المشهد أكثر.. بتدخل المرجفين والأعداء الحاقدين فينفر الناس من المجاهدين ويساء بهم الظنّ.. فأي علاج بعد هذا ينفع وأي نصح في الله أنجع!

كما قد يصعب اكتشاف المرض ذلك أنه مستخفي.. ولا تعريه إلا الأيام ومواقف الحاجة وامتحانات البشر العامة والخاصة.. فيتفاجأ القوم بتبدل حال أحدهم أو ارتداد أخ لهم أو تراجعات لم تكن لتصدر من صاحب يقين مقبل على ما عند الله. أو ربما طغيان واستبداد قاتل يزرع الشحناء والبغضاء في نفوس المجاهدين... أو حتى ظلم قد ينخر في بنيان الجهاد نخرا دون قدرة على صدّه لشدّة توغله وتحصنه، ولا

شك أن لهذا أثر وإن كان الله ينقي به الصفوف ويميّز به الخبيث من الطيب إلا أنه خطر وجب التنبيه له والاحتراز منه.. وما أهلك الغافلين إلا الاستهانة بما قد يكون عظيما!

ثم ما من عاقل يشك في أن مضاعفات المرض في الفرد الواحد قد تتسبب في تأثيرات جانبية فيمن حوله يمكن أن تصل خطورتها لتصدّع الصف الجهادي.. تصدع يفقده تناغمه ويزعزع سكينته ويسلبه بريقه وتألقه.. يكثر معه اللغط والجدل.. وتتفاقم بسببه الفتن والمحن.. ويضيع بذلك الوقت الثمين والعمر المديد في ما لا ينفع بل يضر! بل قد تصل خطورة الأمر أن تصبح هذه الآثار مع الإهمال أكثر فتكا بالجهاد من ضربات الأعداء الهادفة وقد يستعين بها الأعداء ويوظفونها لصالح حربهم ضدنا! فكم من قصص وظّف خلالها الجواسيس تبتدأ برصد قلب ذلك المجاهد المستهدف ثم استدراجه لينقلب لخائن ينقض غزله بيده، وهذا ما يفسر تواجد الأطباء النفسانيين في معسكر الأعداء ويفسر تدخلهم في أغلب الأعمال الاستخباراتية ابتداء من الاستجوابات انتهاء بتوظيف الجواسيس وترويضهم! دون أن ننسى تطويرهم لأساليب التعذيب واستراتيجيات نشر الفتن بين المجاهدين والمسلمين وتقديمهم الدراسات العميقة للحركة الجهادية ونفسيات المجاهدين ونظريات الاختراق والتفريق للصفوف.

وقد جاء هذا التدوين لتسليط الضوء على أمراض القلوب في الساحة الجهادية التي لاشك أن العناية بها وبعلاجاتها تحتل مرتبة ذات أولوية في مهمة حفظ بنيان الحصن الجهادي، وبتكبير عدسة المجهر نجد الأصل في هذه الأمراض على اختلافها

.. واحد دائما .. ألا وهو القلب .. ذلك القلب الذي كتب فيه العلماء وحذّر منه الفقهاء ولخص سرّه إمام المجاهدين وخاتم الأنبياء رسول الله مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم حين قال: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ".

وروى الإمام أحمد في مسنده والطبراني في معجمه عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: "القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذاك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذاك قلب المنافق وقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء فتنبت وتثمر ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه ذهبت به.. أو كما قال.

والمتأمل في هذه الأحاديث يجدها تقدم تشخيصا دقيقا وجامعا لأصل المرض وسبب التراجع أو الانتكاس للنفس البشرية في كل مقام وفي كل زمان وفي جميع الأحوال التي يعيشها الإنسان، يقدمها لنا من لا ينطق عن الهوى بحكمة ربانية تبصر سرائر الخلق وتدلّهم على سبيل النجاة الوحيد، فمن تمسك بها سلم ومن تجاهلها غرق.

وقفة

ولعل ما يزيد المقام عظمة والاهتمام مبالغة .. أن الطائفة المنصورة هم زبدة أهل السنة والجماعة اعتقادا وقولا وعلما وعملا وخلقا وهديا ودعوة وجهادا، فإن أصاب أحد هذه الركائز ارتجاج أو خلل .. فكيف يصح وصفهم بأنصار الله ورسوله.. وكيف يتميزون بأنهم أولياء الله الأخيار.

فلا يستهين بأمراض القلوب من استبسل في مواطن البلاء وأدرك أن الفتن ستنجلي، من كان فارسا يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم.. من كان يستذكر مع كل عمل شعاره " تمضي الرجال ويبقى الأثر".

ولأن هذا الجهاد لن يؤتي أكله إلا إذا قامت عليه نفوس مؤمنة مجاهدة أعمالها الصالحة لا تحصى، ومواقفها النبيلة لا تنسى، وإصلاحاتها الرفيعة لا تبارى وخصالها الحميدة لا تضاهى، سرائرهم أحسن من علانيتهم، شغلهم الشاغل المسابقة في ألوان الخير.. يقبلون النصيحة ويعتنون بالوصيّة ويقومون الاعوجاج .. من غير حقد ولا ضغينة.. يتنافسون في سبيل الله فيستحقون بذلك أن يكونوا أولوا البصائر والألباب. منهاجهم شريعة الإله.. لا يداهنون أحدا في دينه تعالى ولو كان ذا مال وسلطان أو جبروت وطغيان، يعلمون أن وعد ربهم الحق.. وأنهم منصورون بالصدق.. والأيام عندهم دول بين الناس، وللحق والباطل صولة، يدركون تماما هذه السنن الربانية فيتعاملون معها وفق الشرع المبين، والحكمة العاقلة، لا تثني مسيرتهم الأحداث المهولة ولا قوة الأعداء المخذولة.. فالباطل باطل عندهم ولو أشرقت

الشمس الزور بين طرفي جبين مدعيه والحق حق بالنسبة لهم ولو وضع السيف على عنق أحدهم... لا يدورون إلا مع الحق الأبلج المبين وإن خالفه جميع من في الأرض.. وكفى بربهم هاديا وناصرا .

ولن يكتمل هذا الوصف إلا بالمحاسبة للذات والإنابة والرجوع عن الذنب وتصحيح الخطأ ومجاهدة النفس على الاستقامة المستمرة وتوخي السقوط في مستنقعات الفتن والشبهات والمعاصي، وحفظ حقوق الفرد والأمة وتعزيز شعور المسؤولية في الشخص حتى لا يخرج علينا من يحرف المسيرة ويشوّه العطاء ويفسد الخطط والأهداف النبيلة.. ولا أبالغ إن قلت أن أغلب الفتن التي تقع في الساحات الجهادية أصلها هذا الصنف من النّاس الذي يعاني أمراض القلوب المهملة والتي دار عليها الزمن فظهرت بما قدمت يداه قال تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب)[1].. وأيضا قال تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا).[2]

وهكذا نؤكد من جديد أن أصل الفتن والأمراض التي تصيب جسد الجهاد هو هذه المضغة في الفرد كما في الجمع .. وكلما استفحل أمرها وتراكم كلما زاد تأثيرها وتفاقم، ولكن من رحمة الله فإنها لا تهلك إلا صاحبها وجمعه ويخرج الله الصادقين من بين ظهور المفتونين ويتم على أيديهم النصر .. هذه سنن الله قد توالت منذ الأمس، ففتشوا عنها تبصرونها تتواتر وتتكرر.. ليعتبر أولوا الألباب.. ولكن تسليط الضوء على التشخيص الدقيق للمرض يسمح بتبديد صورة الضبابية عند الناس

---

[1] الأنفال 25.
[2] الفرقان 20.

حين يتعجبون مما يصيب ساحات الجهاد من هذه الألوان من الفتن أو تلك.. ولا يدركون أنه مضمار امتحان وتمييز لا يسلم فيه إلا الأصدق والأخلص ومن منّ الله عليه بفضله العظيم.. ثم لأن الجاهل بحقيقة هذا الواقع قد يتعثر في تقدمه كثيرا .. فإن أدرك معرفة به.. وفقه معطياته وسنن الله فيه.. أقبل يحدوه العلم واليقين فلا يبالي بما يصيبه في سبيل الله ولا يضره من ضلّ إذا هتدى.

ولنتأمل تفسير العلامة ابن القيم – رحمه الله – لآية (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[3]. الذي ذكره في كتابه الفوائد، حيث قال: "علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أعداءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه."

القلب

هذه المضغة التي هي أصل الإيمان، إن صلحت صلح سائر الجسد وإن فسدت فسد سائر الجسد، فيها يتواجه الخوف والقسوة وجها لوجه، فإن كان صاحب

[3] العنكبوت الآية 69.

القلب مؤمنا صادقا، رجحت خشيته وعصم نفسه من فتن الطريق، وإن غلبت القسوة صدأ القلب وفسد وفسد معه سائر الجسد، وأي حياة ستكون لإنسان بدون قلب، وأي قلب ذلك الذي لا يعرف الخشية من الله.. تلك الخشية التي هي درع النفس في المعركة بين الحق والباطل .. وبالخشية في السر والعلن تصمد النفوس في وجه الفتن وتقلبات الأحوال وتسكن لله خالقها الأحد الصمد.. فتشرق بذلك الروح بيقين وطمأنينة وسكينة لا توصف!.

ولهذا اتصفت قلوب الصالحين على مرّ الأزمنة والعصور بخشية الله وشدة الخوف من عذابه ووعيده، وفي ذلك تتسابق المواقف التي تدفع المؤمن للتفكّر خاصة حين يعلم أنها تصدر من أهل الصلاح والعلم وأعلامهما.. فهذا عثمان بن عفان – رضي الله عنه– إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيته، ويقول: "لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم أيتهما أصير"[4] وكان أبو ذر –رضي الله عنه– يقول: "يا ليتي كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أخلق"، وقد روى ضمرة عن حفص بن عمر – رضي الله عنهما– قال: بكى الحسن البصري – رحمه الله– فقيل له: ما يبكيك؟ قال: "أخاف أن يطرحني في النار غدا ولا يبالي". وكذلك بكى سفيان الثوري – رحمه الله– ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال : الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي خوفا من سوء الخاتمة! وهذا من أعظم الفقه والأمثلة في هذا الباب تطول.

[4] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (10/ 97)

ثم لا شك أن هذا الخوف وهذه الخشية لها مقابل عظيم يوم لقاء الله سبحانه وتعالى لما رواه ابن حيان – رحمه الله– عن أبي هريرة – رضي الله عنه– قال: قال النبي – صلى الله عليه وسلم– في الحديث القدسي الجليل الذي رواه عن ربه سبحانه وتعالى: "وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين: إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة".

وحين يقبل المرء على ميادين الهجرة والجهاد يعتقد العامة أنه ذو حظ عظيم قد صدق وسبق وبلغ شاطئ الأمان .. ينظرون إليه كمغفور الذنب، فائز برضوان ربه وسالم من شرور الفتن وناج من مغريات الدنيا .. وهذا كله من باب إحسان الظن. لكنهم ما علموا ولا دروا أن النافر الجديد حين يطأ ساحة الجهاد قد وطأ حقيقة ساحة الجد والعمل.. ساحة الإمتحان والتمحيص .. ساحة الداخل فيها ليس كالخارج منها! قال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)[5]. وقال أيضا : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنّا وهم لا يفتنون (2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (3))[6].

وكونه أظهر مظهر الصدق للعيان بنفيره وإعداده وإقباله.. فلابد أن يمتحن ويمحص ويبتلى لتظهر حقيقة دعواه أمام الله سبحانه وتعالى .. وقد حفرت السنين قاعدة لامعة في أن الجهاد يرفع أقواما ويضع أقواما .. فمنهم من يستعمله الله في الدنيا حتى يكون الإمام المجدد لعصره أو البطل الملهم لأمته أو الصالح القدوة في محيطه ..

---

[5] آل عمران 142.
[6] العنكبوت.

ومنهم من يتولى حين الزحف فيبوء بغضب من الله عظيم، أو يغل فيحترق بغلوله، أو يتجسس على إخوانه لصالح العدو فيتحول لخائن عدو لدينه وأمته، منهم من يصل إلى الدرجات العلى مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ومنهم من يهوي للدرك الأسفل من النّار وذلك بما قدمت يداه وما جنت عليه نفسه وما كان ربك بظلام للعبيد.

نعم حين يصيب القلب المرض ويغفل عن مصابه صاحبه.. تشتد مع الأيام أعراضه.. وكلما تغافل صاحبه عنه كلما كان أقرب منه للنفاق عن الإيمان .. لا تؤلمه جراحات المعاصى ولا توجعه التنبيهات والتواصي.. يفر من مرارة الدواء و يؤثر بقاء الألم على مشقة تجرع هذا الدواء ... وهذه حالة قد يظهر فيها صاحب القلب بمظهر المصلح أو الداعي أو المجاهد الباكي! فلا يهم مظهره مادام ستره قد هتك وما دام الله قد فضحه، وكلّه بدسيسة القلب لا بمظهر الشكل.

ولا يتعجبن أحد من أن الحال بالمجاهد قد تصل إلى ما لا يحمد عقباه، فهو في الأول والأخير بشر وإن لم يتحصن ويحفظ نفسه من الذنوب والمعاصي فمآله كمآل أي ظالم لنفسه، قال ابن القيم – رحمه الله– في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: "فمما ينبغي أن يعلم: أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!"

وأضاف: " وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد ارتكبه، وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنـــــا أخرج الأبوين من ملـــكوته الأعلى بذنب واحد."

ولعل من أهم أعراض مرض القلب لدى المجاهد .. تغير حال صاحبه.. الذي قد يبتدئ مشواره في الجهاد كقدوة يشار إليها بالبنان، بل منهم من يوصف بشهيد يمشي على الأرض لنبله وتألق أخلاقه .. كل ذلك في البداية اللامعة المبهرة .. ولكن تأتي الفتن تلو الأخرى لتعري ذلك المعدن الدفين.. وليتغير معها ذلك البريق وينطفأ .. فيصبح قدوة الأمس يؤثر الضار على النافع ويهوى بنفسه في قعر المهلكات، يطرق أبواب المضرات ويفقد كل بصيص حكمة وعقل.. يضحى عنده الحديث عن الصالحين ثقيلا مبغضا! بينما غيبتهم والنمّ عليهم خفيفا محببا! وقائمة التغييرات في هذا الاتجاه لا يمكن حصرها، ذلك أنها مرتبطة بدرجة الإصابة بالمرض وحجم الضرر والأسباب المثبطة وكذا المعينة له.

ثم إن هذه الأعراض قد تشتد ظهورا عند بعض من ألف الجهاد حتى أصبح في ثغره عادة لا عبادة .. أو استمر في درب الجهاد طويلا دون عناية بأسباب الإستقامة أو الاجتهاد في التقرب من الله، متحججا بمشاغل العمل أو ضيق الوقت.. في حين يحرم نفسه وقود المسيرة ونورها فأنى له المواصلة بثبات!

والمتأمل في أغلب المصابين بأمراض القلوب يجدهم يشتركون في أعراض بارزة لا تكاد تخفى على معاين، أولها هجران المجاهد للقرآن العظيم والذكر المنير ثم انتكاسته وخوفه عند اقتراب الخطر والعدو.. وهو مما لا يمكن إخفاؤه! ولا شك أن هذا الخوف نتيجة طبيعية للبعد عن روضة الاستزادة وتحصين قلب المجاهد بزاد الوحيين ونور الله الذي يشق الظلمات ويبدد وحشة المسير .. وبغض النظر عن نوع المرض التي تمكن من قلب المصاب، فإنه في المحصلة ضحية مكر الشيطان الذي عمل على استهداف قلبه بحرص شديد ثم استدراجه بما حسبه خيرا في حين لم يكن إلا شرا!

وكما أن الأجر في الجهاد عظيم فإن الذنب في الجهاد عظيم كذلك، فلا يمكن أن يحصل المجاهد على ميزة الرفعة عن بقية الخلق في مرتبة عالية كمرتبة الجهاد لحسن صنيعه فيها، في حين لا يناله العقاب الأشد إذا تهاون في هذه المرتبة وأذنب ولم يصلح. قال تعالى : (إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)[7].

والمصيبة تكمن في أن آثار ذنب المجاهد تصل لجميع من حوله، وكلما زادت الذنوب كلما تأخر النصر المنتظر، ولنتأمل في قصة[8] القوم الذين استعصى عليهم فتح حصن من حصون الأعداء، فجمعهم الأمير لينظر أي ذنب يمنعهم هذا الفتح، فبعد أن أمعنوا النظر وجدوا أنفسهم تركوا سنة من سنن الرسول – ﷺ– وهي السواك! فعزم الجميع على الرجوع إليها ففتح الله عليهم الحصن بعد ذلك. ولا شك أن هذه القصة تعكس خطورة ترك السنة الواحدة في الجهاد فما بالك بمن اقترف

[7] المائدة 115.
[8] ذكرها ابن النحاس في كتابه مشارع الأشواق.

الذنب! كيف يطمع في حيازة شرف النصر بعد معصيته إن لم يستغفر ربّه ويتوب عنها!

القلب السليم

قال الله سبحانه وتعالى: (إلا من أتى الله بقلب سليم)[9]! فسلامة القلب هي سبب السعادة الأبدية.. والعناية بسلامته تعني حفظه من الأمراض الفتاكة والنأي به عن الفتن المهلكة، ولكل داء دواء كما لكل داء وقاية، جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال:" ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء".

والقلب السليم هو قلب لم يغفل عن عبادة ربه والإنابة إليه والاستغفار والترفع عن سفاسف الدنيا ومثبطات العزم والإقبال في سبيل الله والتوبة عند الذنب يدرأ بالحسنة السيّئة .. وفي صحيح البخاري قال – صلى الله عليه وسلم – لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل). وهذا الحديث يلخص سّرا من أسرار سعادة من هجر الدنيا وملذاتها وآثر الآخرة عن كل فان .. صاحب القلب السليم.. تجده يبذل الأسباب ويعارك النفس حتى يخضعها للإنابة والإخبات لخالقها.. يستغني بحب الله وعبادته وذكره عن حب من سواه.. يتألم لفوات ورد أو طاعة.. يسارع في تحصيل أجر أو حسنة.. يسابق في خدمة المجاهدين .. وسد حاجاتهم على قدر استطاعته.. دون تململ أو تكبر أو تذمر .. حريص على

[9] الشعراء 89.

الصلاة لا يشغله عنها شاغل .. حين يقيمها.. تقيم جوارحه معها الخشوع فلا تتحرك إلا عبادة ... قد انقطعت عن ملهيات الدنيا.. لا يكسل لصلاة عشاء ولا فجر وقد يسندها بقيام في الليل.. وإن شئت أن تعرف الرجل في صفوف الجهاد .. فانظر إلى حاله مع الصلاة.. فهي عنوان فلاحه إن صدق. قلبه ذاكر وذهنه متفكر.. يختلج قلبه باسم الله في سكناته وحركاته كيف لا وهو ينتظر الموت في كل آن ويبصر باب الرحيل في كل حين.. ويعلم أن رأس مال الجهاد صدقه مع ربه! إن جاءته النصيحة أخذها أخذ الجد والعزم.. ذلك أنه يحرص على الإخلاص والإحسان، ومهما بلغ من إتقان في عمله.. تراه يذكر منّ الله عليه وفضله ويؤكد تقصيره في حق ربه وبذله..لا يحمل ظلما لأحد، صدره سليم على المؤمنين، كما أنه يخاف تعدي حدود الله أشد الخوف.

هذا القلب السليم يغتسل من الذنوب باستمرار بعبادة الاستغفار.. ذلك أن القلوب إن غفلت يعلوها الصدأ مع الزمن فتثقل به وتصبح بأمس الحاجة لتنظيف يومي مستمر يحفظ سلامة القلب .. فالحسنات تذهبن السيئات .. و هذا الصنف من القلوب يحبه القريبون منه المسابقون معه والمتعاونون معه على البرّ والتقوى في سبيل الله، أما الحاسدون فأكثر سهامهم عليه.. قد يزدرونه أو يستهزؤن به.. قد يغتابونه أو ينمّون عليه بكرة وعشيّة.. ولكنه في شغل شاغل لا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.. همّه جهاده وعباداته وقرباته .. وعلاقاته الطيّبة.. فلا يلتفت لحفر الطريق وكل ما يؤخر مسيرته، ذلك أنه مدرك لأهمية الوقت وقيمة البذل وسر من أسرار النصر.

قال ابن القيم – رحمه الله– في (مفتاح دار السعادة): "والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد إلا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، ولكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه، ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع، وسليم من الغي وسليم من الباطل، وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها".

القلب المريض

قال ابن القيم – رحمه الله– في كتابه الفوائد: "القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحميّة ويصدأ كما تصدأ المرآه وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم، وزينته التقوى ويجوع ويضمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة".

فالقلب المريض هو القلب الذي استقر فيه الداء وظهرت أعراضه وبدأ فساده وانتشر ضرره واشتكى معارفه.. يعيش في ظلام الغفلة ويتثاقل تجرع الدواء فيكون بداية البلاء في الصف الجهادي إذ أنه مؤذٍ إخوانه وجيرانه بلا شك، بل قد يتطور معه الحال حتى يصبح وبالا عليهم يتفاداه الجميع ويحذرون منه .. ثم قد يبتلي الله المجاهدين فيلتقي مريض القلب هذا بمن هو مثله مريض قلب أيضا، أو ينجح في

التأثير في قلوب ضعيفة أخرى سهلة الانقياد..(وفيكم سماعون لهم) (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) فيؤزهم أزا ويقول، (أجمعوا كيدكم واتوا صفا فقد أفلح اليوم من استعلى) وكما يقال إذا عمّت خفّت وكلما زاد عدد المصابين بمرض القلب كلما ظهرت التداعيات السلبيّة جليّة في الصفّ الجهادي. ولاشك أن المرض إذا وقر في القلب يعميه أو يضعف بصيرته، فإذا ضعف هذا القلب وعمي فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته.

ولنا أن نتخيل إن كان هذا الجمع المصاب.. ممن يستهين بذنب الكذب أو الإخلاف بالوعد أو تضييع أمانة أموال المسلمين! كيف سيكون العمل معهم في الميدان؟ وعلى هذا المثال نقيس بقية الذنوب وننظر تأثيرها في المردود الجهادي.

أما صاحب القلب المريض فلا يمكن أن يستخفي من هذه الإصابة مهما بذل من جهد ذلك أن لها فلتات وأعراض يلتمسها من يخالطه ويقاربه.. قال ابن عقيل – رحمه الله– : "للإيمان روائح ولوائح لا تخفى على اطلاع مكلّف بالتلميح للمتفرس وقل أن يضمر مضمر شيئا إلا وظهر مع الزمان على فلتات لسانه وصفحات وجهه.[10] وقال أيضا: "الطباع الردية أبالسة الإنسان والعقول والأديان ملائكة هذا الشأن، ومنها خلال تعتلج ولها أخلاق تتغالب والشرائع من خارج هذا الجسم لمصالح العالم وما دام العبد في العلاج فهو طالب فإذا غلّب العقل، واستعمل الشرع فهو واصل.[11]

[10] الآدالب الشرعية (1-194)
[11] الآداب الشرعية (1-214)

ولهذا لا يعدم مريض العلاج.. كما لا يعصم مرء من الإصابة.. إلا من رحم ربي.. فقد كان رسول الله – ﷺ –كثيرا ما يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.." .. قال أنس: قلت يا رسول الله أتخاف علينا من الإشراك..؟ قال: "نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء". [12]

وقد جاء في المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة – رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –ﷺ–: "إن المؤمن إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله عزوجل (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون)[13] [14]. فهذا الحديث يشخص لنا بدقة كيف يصل القلب إلى مرحلة الرّان بالتمادي في الغفلة.. نسأل الله العفو والعافية.

وإن وصلت يوما هذه الأمراض إلى نسبة ظاهرة بيّنة بجلاء بين صفوف المجاهدين. فعلى قبة النصر السلام وهو ما يكون غالبا حال الجماعات المبتدعة، أما إن كانت الإصابة محدودة في بعض الأفراد في الصفّ الجهادي فهذا مما لا خلاص منه، وهو مما يميّز الله به الصفوف، وهو سنة متوارثة وقد جعل الله بعضنا لبعض فتنة أنصبر أم ننتكس!

ثم إن سبيل الجهاد سبيل كاشفة، فكل من ارتدى رداء الإدعاء كشفته شواهد الإيمان والعواصف الهادرة، وصدق من قال: "إن ميدان القول غير ميدان الخيال وميدان العمل غير ميدان القول وميدان الجهاد غير ميدان العمل وميدان الجهاد

[12] رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم.
[13] المطففين 14.
[14] قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح

الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ". والحمد لله الذي حفظ هذا الجهاد ليستمر خضرا مباركا إلى قيام الساعة كما بشرنا بذلك رسول الله – ﷺ– فلا تحسبوه شرا لكم بل هو خير.

وبالنظر في تاريخ الحركة الجهادية والفتن التي توالت خلالها.. وبالنظر في تجارب بعض الأنفس والتبصر في أسباب تبدلها وتراجعها.. وبالنظر في حجم الضرر والأذى الذي نال من بنيان الجهاد وأهله.. أدون ها هنا أغلب الأمراض التي قد يصاب بها قلب المجاهد وتؤثر في الصفّ الجهادي... مع التنبيه إلى أن كل مرض تظهر أعراضه بدرجات متفاوتة بحسب التمادي في الغفلة والهروب من العلاج وزيادة نسبة أصحابه في الصف وكذا عوامل التأثير زيادة ونقصا.

نعرضها بدون ترتيب مقصود ولا تعيين مخصوص .. ونعرض مع كل داء التشخيص والدواء اللازم له. حتى لا يقال أننا دأبنا على الشكوى وأتقنّا فن التشخيص لكننا عاجزين تماما على تقديم الحلول الناجعة والعلاجات اللازمة للمصائب التي تعصف بالجهاد بل بأمة الإسلام قاطبة .. سلمها الله ونصرها نصرا عزيزا ومؤزرا.

1. إذا خلا بمحارم الله انتهكها

قد يظهر أمام إخوانه صادقا مقبلا مسابقا.. أو داعيا مؤثرا واعظا ومحرضا.. ولكنه إذا خلا بمحارم الله انتهكها! وإذا وصل إلى حدود الله سرا تعداها! نعم هذا داء قد يصاب به المجاهد. وإنّه لمن عظيم المصاب أن يحسن إخوانه الظن به بينما هناك من يبيت يدعو عليه! كل من تعدى حدود الله في خفية من أعين الناس.. يدخل في هذا الصنف من أمراض القلوب.. فهو يتعدى حدود الله بإرادته ولكنه يستخفي من الناس لا من الله سبحانه، فيورثه الله في قلبه قسوة وربما انتكاسة لا يقوم منها أبدا .. بقدر إصراره على الذنب وبقدر حجم الذنب .. ومن أبرز أعراض هذا الداء أن يفضحه خوفه.. فتظهر ملامح هذا الخوف على وجهه حين المواجهة وتجده يهرب حين المفاصلة.. ويتشكك من ظلّه! فالأصل في المعاصي أنها تلقي الخوف والرعب في القلوب ... فمن خاف الله آمنه من كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء.. بذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا. قال رسول الله –ﷺ-: "البرّ حسن الخلق، والإثم ما حالك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس". كما قد يتقهقر المصاب فينزل من مكانة عالية بين إخوانه إلى مرتبة هيّنة يعجب لها من يعرفه وهو جاهل لسبب تراجعه ذلك أن الذنوب تمحق البركة وتسقط من هيبة العبد.

الدواء:

لا شك أن المجاهد غير معصوم، وحين يقع في مثل هذا الداء يكون الوعظ المباشر والروتيني بلا فائدة، فالمصاب يعلم تماما أن تعدي حدود الله أمر عظيم ولكنه

يسوّف ويبالغ في التهوين .. لهذا يحتاج الواعظ الطبيب إلى فنّ في إيقاد نار الخشية والخوف من الربّ، كأن يقرب له الصورة بتبيان تداعيات هذا المرض على ذريّته أو أحبته.. فيوقظ فيه صحوة المسؤولية.. أو أن يبرز له العواقب الوخيمة للتمادي ويصور له بشاعة الفضيحة في الدنيا قبل الآخرة.. ويحذره من أن الله يمهل ولا يهمل وأن عقابه إن حلّ لن تغني عنه التوبة، وغيره من أساليب واعظة رادعة.

كما على المريض أن يعزم على التوبة الصادقة وأن يتذكر أن سوء الخاتمة مرتبط بدسيسة في القلب يخفيها صاحبها حتى إذا حان وقت رحيله وكان الناس يحسنون به الظن تفاجأوا من خاتمة قبيحة بشعة .. فمن لم يحفظ حدود الله في السرّ فضحه الله في العلن، وما هتكت الأستار إلا للاستهانة المتواصلة بالذنب، وعلى من أصيب بمثل هذا المرض الاستغفار في كل حين وآن والحزم مع النفس حين يتعلق الأمر بحدود الله والاقتراب من حماها.. والابتعاد عن كل ما يدفع بالغفلة للوقوع في وحل المعصيّة.. وليجاهد نفسه بقيام الليل والإكثار من تلاوة القرآن وتدبره والتعمق في تفسيره لعل الله يشفيه من مرضه ويمنّ عليه بتوبة نصوح. وفي بعض الأحيان حين يكون التعدي لحدود الله قد جنى على صاحبه التعزير أو تطبيق حد من حدود الإسلام فإن هذه كافية لانطلاقة جديدة مشرقة .. وبعضهم قد يوقظه مجرد التفكير في إقامة حد عليه في الملأ فيهاب تعدي الحدود، وهذه من حكمة الله أن تطبق الأحكام أمام أعين الناس ليعتبروا. أما إن كان تعديه يضر بغيره ويهضم حقوقهم أو يأكل أموالهم بغير حق، فعليه أن يعيد هذه الحقوق لأهلها وأن يستغفر الله من ظلمه ويحسن إليهم بقدر ما أساء لعل الله يعفو عنه ويصفح، فإن حقوق الناس

تبقى معلقة إلى يوم القيامة ولا أنفع من ردها في الحياة الدنيا ليخف حمل الحساب في الآخرة.

وحين نتأمل الأصل في هذا الداء نجده غالبا الاستهانة بالذنب.. وقد ذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود –ﷺ– : أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه"، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا كمثل قوم نزلوا إلى أرض فلاة، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادا وأججوا نارا وأنضجوا ما قذفوا فيها".[15]

وقال الإمام أحمد : حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول سمعت بلال بن سعد يقول: " لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت"، وقال الفضيل بن عياض: "بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله". فهل من معتبر!

لا تحقرن من الذنوب صغيرا.. إن الصغير غدا يعود كبيرا

إن الصغير ولو تقادم عهده .. عند الإله مسطرا تسطيرا

فازجر هواك عن البطال لا تكن .. صعب القيادة وشمّرن تشميرا

إن المحبّ إذا أحبّ إلهه .. طار الفؤاد وألهم التفكيرا

---

[15] أخرجه أحمد (402/1) وقال عنه الألباني صحيح لغيره في صحيح الترغيب برقم 3470.

ثم أين هذا المجاهد من قول الله عزّ وجلّ : (إنّ الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير* وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور).

وكما قال الامام أحمد –رحمه الله–:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ الرقيب

ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

2. الغفلة

ثم إن بعض القلوب قد تعتريها الغفلة عن الذكر وتكسل عن العبادات.. فتغرق تدريجيا في بحر الشكوك والأوهام والجهالات وتتفاقم الحالة مع تراكم هذه الأدران التي تتراكم كالأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها .. هذا تشخيص لمرض خبيث وجب التنبه له.. فكل مجاهد غفل عن المحاسبة للنفس ورضي عن حاله استسلم لعواقب هذا المرض .. فإن لم يبادر للتوبة والاستغفار وقراءة القرآن والخلوة مع الله لتنظيف كل ما كان من أدران.. لن يسلم من السقوط في الفتنة ووحل الذنوب والمعاصي إلا بمشيئة الرحمن! وتتفاقم هذه الحالة مع صحبة في الجهاد غافلة أخرى.. فيصبح القوم ينشغلون بالأناشيد لا بذكر الله.. ويتحاورون بالنكت لا بالعلم.. ويتدافعون للتسلية لا للتدريب، ويتعاونون في الإثم لا بالبرّ! ويستدرجهم الشيطان بالتنافس في الزيّ لا في الأداء! تشغلهم شهواتهم عن واجباتهم وأكبر همّهم ذاك النوع من الطعام أو تلك السلوة في الخلوة وصفات هذا المرض وأعراضه كثيرة

ولا شك أن البعد عن الذكر والاستهانة بالذنب أهم أسبابها. ومما لا يخفى على ذي لبّ فإن أول خطوة في الانحراف عن سبيل الله هي الغفلة عن الذكر، ذلك أن الذكر درع لقلب المسلم يحفظه من استدراج الشيطان وتلبيس إبليس. فإن أضاع المجاهد درعه كيف له أن يقاوم وأنى له أن يثبت!

الدواء:

لم يزل الاستغفار سيد العلاجات وأولها في حالة مرض الغفلة .. قال تعالى: (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا).

وحين يذكر الاستغفار فهذا يعني أن يردد المجاهد كلمات الاستغفار يلهج بها قلبه قبل أن يلفظها لسانه.. أي أنه يقولها موقنا بها لا يكررها غافلا ولا لاهيا.. بل يستحضر عظمة الله سبحانه وتعالى في قلبه وليتأسى برسول الله – ﷺ– أسوة حسنة فقد كان يستغفر الله تعالى في اليوم أكثر من مائة مرّة وهو المعصوم المغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وقال – ﷺ–: سيّد الاستغفار أن تقول: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِكَ ووعِدكَ ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنَعْت، أبوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبوءُ بذنبي فاغفر فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت". فمن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ... ومن قالها من الليل وهو موقنا بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة. ومعنى موقنا بها: أي مؤمنا بها مطمئنا ومتيقنا بها.

والاستغفار دواء لابدّ لنا من تجرعه في كل حين لأنه دواء للقلوب الصدئة التي تهدد سلامة الصف الجهادي، وكل قلب تكدست عليه ورانت به لا يجلو صدأه إلا كثرة الاستغفار.

إلهي بك أستجير ومن يجير سواك ارحم ضعيفا يحتمي بحماك

يا ربّ قد أخطأت فاغفر زلتي أنت المجيب لكل من ناداك

ومما لا يغفل عنه أن الأذكار بأنواعها والتزام أوقاتها من أهم أسباب تقوية القلوب ومضاعفة مناعتها.. ولايمكن أن يخلو جدول السعداء من أذكار المسلم اليومية، والتي إن دعّمها بمواظبة على تلاوة القرآن، حاز على بعض أهم أسباب السعادة وتخلص من داء الغفلة.

ثم ليحرص المجاهد على الصحبة الصالحة التي تعينه على المسير باستقامة وتذكره بالله، وليتزود بالعلم وحلقات الذكر وليلازم الدعاة والمصلحين والكتب النافعة وليبتعد عن كل ما يشغله عن ذكر ربّه وشكره وحسن عبادته.

3. عبادة الذات

قال ابن عقيل – رحمه الله – : "الإعجاب ليس بالفرح والفرح لا يقدح في الطاعات، لأنها مسرة النفس بطاعة الرب عز وجل ومثل ذلك مما سر العقلاء وأبهج الفضلاء.. وإنما الإعجاب استكثار ما يأتي به من طاعة الله عز وجل ورؤية

النفس بعين الافتخار".[16] وقال أيضا: "أنت لو علمت أن إكرام الخلق لك رياء سقطت من عينك، أفأقنع أنا منك أن تجعلني في العادة جزءا من كل، أو بعضا من جماعة؟ وقال أيضا: "ما يحلو لك العمل حتى تحلو لك تسميتهم بعابد وزاهد، فارث لنفسك من ذلك فإنه رياء وسمعة، وليس لك منه إلا ما حظيت به من الصّيت، تدري كم في الجريدة أقوام لا يؤبه لهم إلا عند القيام من القبور وكم يفتضح غدا من أرباب الأسماء من الخلق بعالم وصالح وزاهد نعوذ بالله من طفيلي تصدر بالوقاحة."[17]

أما هذا الصنف فهو من أخطر الأصناف في أرض الجهاد، ذلك أنه أمام إخوانه صنف مجتهد مثابر على العبادة والجهاد والمسابقة والعمل، فيتخلل قلبه تدريجيا عجب بالنفس والذات..! فيسقط في مرض انعدام الإخلاص، الذي لا شك أنه السبب رئيس لتأخر النصر والتمكين، بل والسبب الرئيس لتفرق المسلمين وبعدهم عن الألفة والمحبة ووحدة الكلمة التي هي من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية. وقال – ﷺ–: (رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والتعب) وكذلك المصاب أعظم مع مجاهد ليس له من جهاده إلا الزي والإسم! ومن أعراض هذا المرض أن ينظر المجاهد لنفسه على أنه رجل عظيم الشأن .. مبخوس بين الصفوف، يستحق الأفضل والأحسن من غيره.. يزدري كل إخوانه ويرى نفسه الأحق بالإمارة، فإن نالها تعامل باستعلاء ونظر للناس وكأنه في برج عاجي من فوقهم! يحسب ما وصل إليه بسبب ذكائه وحسن تدبيره وتميّزه عن

---

[16] الآداب الشرعية (1-189 – 190)
[17] الآداب الشرعية (1- 192)

غيره، وينسى أنه محض فضل من خالقه! ويعتاد هذا النوع من الرجال الظهور كشخصية ناجحة، فإن استخفى من إخوانه فترت همته وضعفت وانزوى للكسل والخمول فإذا رآهم من جديد انتفش وأظهر اللمعان الكاذب.. وهو ذاته الرياء.. الذي إن ابتلي به المجاهد فقد خسر الخسران المبين! وروى الامام أحمد –رحمه الله– عن شداد بن أوس– رضي الله عنه– أنه بكى فقيل: ما يبكيك؟ قال: شيء سمعته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فأبكاني .. سمعته يقول: "أتخوّف على أمتي الشرك والشهوة الخفيّة" قلت: يا رسول الله! أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم .. أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكن يراؤون الناس بأعمالهم.

ولعل أخطر منه درجة ذلك المجاهد الذي يجاهد لا لنصرة دينه وأمته قبل كل شيء بل ليقال عنه فلان بن فلان ابتداء.. إنها عبادة النفس لا يجاهد إلا لنفسه، وقد نبهنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من هذا الصنف الخطير فقال: (أول من تسعر بهم النار يوم القيامة.. وذكر من بينهم مجاهد جاهد ليقال عنه شجاع!) ومن أعراض هذا المرض، حب صاحبه للثناء والمديح وانشغاله بكل ما يرضي نفسه ويشبع غروره ليحفظ الصورة التي يحرص على الظهور بها بين أعين الناس. ومن أعراضه أيضا حب الإمارة والتصدر والظهور بين الناس. وإن أسندت له وظيفة بسيطة يتذمر ويتأفف ويشعر بالإهانة فيهمل عمله ويزدريه! وقد نسي قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : (إن كان في الساقة فهو في الساقة، وإن كان في الحراسة فهو في الحراسة). وتكمن خطورة هذا المرض في أنه ما أن يصيب القلب حتى يتعدى ضرره إلى جميع أعمال المجاهد، فيتغير حال عبادته الخاصة من صلاة وصيام وذكر، يؤديها لأنها صفة المجاهد التي يريد أن يكسب بها من حوله فيشتهر بصلاحه أمامهم فلا

يؤديها خالصة لخالقه! فقد يجتهد في العبادة أمام إخوانه ولكنه يفعل ذلك حتى يثقل ميزان سيرته الذاتية في الدنيا ويُذكر به بين الناس.. فإن تعبد منفردا كانت صلاته أقل إتقانا بكثير من تلك التي يؤديها أمام الناس واجتهاده في الخلوة لا يكاد يذكر! وقد تجده ينهى عن الشيء في الخارج ويأتيه في الداخل، وهذه لا يكشفها إلا أقرب الناس من حوله .. ومع أن النيّة أصعب ما يمكن الخوض فيه كما قال سفيان الثوري –رحمه الله– : "ما عالجت شيئاً أشد من نيتي فإنها تتقلب علي .." فإن مخالفة الباطن للظاهر أمر عظيم في الجهاد.

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى   فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سرا فما له   على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافق   ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

وقال الأستاذ عبد الجليل حسن في لمحاته التربوية من السيرة النبوية يصف حال صاحب هذا المرض قائلا: (ولمحتنا التربوية التي نشتمها من هنا هي التفرقة بين عبادة الله وحده الذي لا شريك له، وبين عبادة أنا، التفرقة بين الحق الذي لا مرية فيه سواء أكان هذا الحق الذي أتى على يدي أو على يد غيري، سواء أكنت أنا فيه أو كان غيري، وبين الحق الزائف الذي يكون فيه أنا وأنا فقط، فإن كان غيري فهي الردة والنكوص والهلاك والخسران، إنها التفرقة بين عبادة الله وعبادة أنا، أو بين عبادة الله وعبادة النفس من دون الله.

إن كثيراً جداً ممن ينتسبون إلى الدعوة الإسلامية اليوم يتعاملون مع الدعوة ورجالها بمنطق أبي عامر [18]، فهو لا ينشط في دعوته إلا إذا كان هو صاحب الإمارة وصاحب المنزلة، صاحب التوجيه، صاحب المقام في قلوب الخلق هو القائل، وهو المتحدث، هو القائد ... المهم أن يكون هو وهو فقط، فإذا كان الأمر كذلك كان النشاط والحركة، والدعوة والهمة العالية، العمل الدائب وربما يغلف كل ما سبق من عمل وحركة بشيء من التواضع، والزهد الزائفين فإذا اهتزت في نفس هذا النمط من الدعاة (أنا) فوجد نفسه نزل من موضع إلى موضع، أو سبقه من هو دونه، أو لم يحز ما ترنو إليه نفسه، انقلبت الأمور وهدأت الحركة، وانطفأت شعلة النشاط، وبردت جذوة الأمل، وانكفأ إلى بيته، وعلى أحسن الأحوال أخذ إجازة من الدعوة، تنم عن غضب ومشاحنة ينطوي عليها الصدر، وقد يسوء الحال عن ذلك، فتكون الردة والنكوص عن الطريق كله، بحجة أن الجماعة قد انحرفت عن خطها الصحيح، وهو لا يرضى هذا الانحراف، ثم يبدأ البحث كما يزعم عن طريق آخر فيه أنا وأنا فقط) اهـ..

وفي نفس الاتجاه يصف سيد قطب –رحمه الله – بعضا من صفات هذا الداء فيقول: (ولقد تتحول مصلحه الدعوة إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل، إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذ النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذ التحري من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطر على الدعوة وأصحابها فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب سواء كان هذا الانحراف كثير أو قليلا والله

[18] أبي عامر المنصور حاجب الخلافة الأموية في الأندلس و الذي استبد بالحكم وسلبه من الخليفة هشام المؤيد.

أعرف منهم بالمصلحه وهم ليسوا بها مكلفين إنما هم مكلفون بأمر واحد.. لا ينحرفوا عن المنهج وألا يحيدوا عن الطريق). ومصلحة الدعوة هنا توازيها مصلحة الذات .. فيصبح الداعية يسعى لحفظ مصالح ذاته باسم الدعوة.. ولا يركز على الاستقامة على المنهج حين تكون معها التكاليف التي تدفعها النفس باهظة متحججا بالمصلحة!

وهذا الوصف هو ذاته في ميدان الجهاد كما في ميدان الدعوة وللأسف فإن هذا الصنف من الرجال هم غالبا أصل الفتنة بين الصفوف يغضبون لأنفسهم فيجعلونها نارا تفرق المجاهدين ويرفعون لواء التظلم وهم الظالمين! فأيها المجاهد إن كنت ماضيا في سيرك لله.. فلا يشغلنك أي مرتبة أنت فيها، بل انشغل بالعمل وكفى وإن جهل حالك كل من في الأرض.

كما لابد من مراقبة دائمة للنيّة ومن محاسبة دائمة للنفس.. فإن المجاهد إن غفل ودخل قلبه العجب والغرور وعبادة النفس، قد هلك.. تراه لا يقدم على عمل جهادي إلا إذا فيه رفعة اسمه وظهور رسمه واشتهار وصفه ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإن أعطي عملا خفيا ضاق بسرّه صدره.. وإن طلب منه المشاركة في عمل باسم مجهول كأنما يصعّد في السماء وقد يسرّب الخبر بين من يحب أن يعرفوا حاله فينتشر ذلك في الكواليس وهو قرير العين بشهرته وإحسان الظن به!

ومما لاشك فيه أن هذا الوصف لا يصل لمن هو في مقام القدوة فذاك صورة للاستقامة الظاهرة والباطنة وهو مشهور بغير دافع من نفسه بل وضعه الله سبحانه

وتعالى في هذا المقام دون سعي منه جاد لأن يظهر... وإنما حديثنا عمن كانت غايته النهائية تحقيق منزلته عند الناس.

الدواء:

إن الابتلاء بهذا الداء يعمي بصر صاحبه ويشغله بالإعجاب بنفسه واللهث لشهرتها فلا يتنازل لحقيقة مرضه، وخير ما يعالج به هو التذكرة بعاقبة العمل بلا إخلاص... فعلى المصاب أن يتفكر في قول الله تعالى في سورة البيّنة: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء وذلك دين القيّمة) وقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم– :" إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه قيل: وما إتقانه يا رسول الله؟ قال: يخلصه من الرياء والبدعة".

لابد من أن يحرص المجاهد على حفظ زرعه وقلبه من هذا الذي يأكل الحسنات أكلا وينسف الأعمال نسفا.. قال – ﷺ–: "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فقيل: وما هو يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: الرياء .. يقول الله تعالى يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤونهم بأعمالكم، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء". وقال تعالى في سورة الزمر (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون).

ثم ليتفكر المجاهد المصاب بهذا المرض في عقوبة الرياء أو عدم الاخلاص في جهاده، إنها عقوبة المشرك بالله! ذلك أنّ الرياء كالنفاق وهو إظهار شيء وإبطان شيء مخالف له، كما أن صاحبه لا يعمل لوجه الله بل يعمل لوجه من يرائيه.

وقد روى مسلم – رحمه الله– عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: إنّ أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد في سبيل الله فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت .. قال: كذبت! ولكنك فعلت ليقال هو جريء وقد قيل ، ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.. ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمته فعرفها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .. قال: كذبت! ولكنك فعلت ليقال هو جواد، وقد قيل، ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمّه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمته فعرفها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن .. قال: كذبت! ولكنك تعلمت ليقال هو عالم .. وقرأت ليقال هو قارىء وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

فأي خسران هذا الذي يقع فيه المجاهد حين يكون كل ما سعى له من جهاد في مهب الريح..! إنه مرض عضال إن تسلل لقلب مجاهد خسر الدنيا والآخرة.

وهذا يوازي قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قال: ربّ مصلٍّ لا خير فيه.

والمخلص في عبادته وجهاده هو الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته والاخلاص ألا تحبّ مُحَمَّدة الناس على شيء فعلته حتى لا تدخل نفسك في متاهات الرياء. ولا أن تحبّ المحمدة على ما لم تفعله فهذه أعظم ومصيبة أكبر تستوجب العذاب من الله. كما قال تعالى: (لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم)[19] وقال الفضيل بن عيّاض –رحمه الله – : ترك العمل لأجل الناس رياء ... والعمل لأجل الناس شرك .. والاخلاص أن يعافيك الله منهما ... وكل عمل لم يكن خالصا لوجه الله الكريم فهو رياء ومردود على صاحبه لا ثواب له في الآخرة، لقوله – ﷺ-: "إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لله وابتغيَ به وجهه".

ومن مراسيل الحسن : إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالأرحام لعنهم الله عز وجل عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم!.

4. العجب بالنفس والكبر

يتسلل مرض العجب تدريجيا إلى قلب المجاهد وهو لا يدري عن نفسه، فيتصف مع الأيام بكبر لا يطاق وفظاظة لا تستحب وازدراء لمن حوله لا يُحد، فيستغل ذلك الشيطان ويبقى ينمي فيه حتى تظهر أعراضه المزعجة للناس .. وتبرز خطورة هذا الداء في أن أول معصية ظهرت على الأرض كانت بسبب التكبر وكان حامل لوائها

[19] آل عمران 188.

إبليس الملعون. وأن من أبرز أعراضه في ساحات الجهاد أن تجد المجاهد المصاب به، يزدري العلماء والدعاة والقيادات والمجاهدين من أولي الفضل وينتقص منهم ويسدد سهام التحقير لهم بلا رحمة أو تروي وهذا مما يزعزع حلقات الاحترام والثقة بين طبقات المجاهدين.. وفي ذات الوقت يظهر منه الإعجاب بنفسه كونه ينتقد الكبار، ما يمكن رصده على فلتات لسانه أو على تصرفاته. كما أن المصاب به يحب الظهور والشهرة وإن كان بالمخالفة لجذب الأنظار إليه، وكما يقال خالف تعرف! وقد تزداد الأعراض سوء إذا وصل الكبر إلى ذروته، فتسوء معاملته لمن تحته من جنود أو عاملين أو حتى مع أهله وأصحابه، ويزداد فظاظة وشدة في التعامل قولا وعملا.. يكثر النقد ويسرف في الذم ولا يرى له كفؤا في شيء! ويحسب نفسه بذلك ينصف نفسه ويعطيها مكانتها التي يستحقها. ولكنه عمى البصر والبصيرة.! قال تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)[20].

الدواء:

لا يستغرب أحد أن يوجد مرض العجب بالنفس بين المجاهدين.. فقد أصيب به العلماء وجاهدوا أنفسهم حتى تعالجوا منه وهم الجبال من العلم. وها هو ابن حزم – رحمه الله– يقدم وصفا دقيقا للمرض الذي عايشه بنفسه ونجا منه بفضل ربه ثم اجتهاده وفيه نبصر العلاج الذي تعافى به منه، حيث يقول:" كانت فيّ عيوب، فلم أزل بالرياضة (مجاهدة النفس) واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين، في الأخلاق وآداب النفس أعاني

[20] النجم 32.

مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه، وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الإقرار بها (العيوب)، ليتعظ بذلك متعظ إن شاء الله.

فمنها: كلف في الرضاء، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني، وأعجزني ذلك في الرضى، وكأني سامحت نفسي في ذلك.

ومنها: عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع.

ومنها: محبة في بعد الصيت (حب الشهرة) والغلبة، فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي[21].

ويكمل الشيخ الجليل وصف الدواء قائلا: "من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه، فإن أعجب بفضائله، فليفتش عما فيه من الأخلاق الدنية، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أنه مصيبة للأبد وأنه أتم الناس نقصاً، لأن العاقل من ميّز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، فإن أعجبت بأرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها، وإن أعجبت بخيرك فتفكر في معاصيك وتقصيرك، وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله ... "[22]

---

[21] رسائل ابن حزم الجزء الأول ص 252.
[22] رسائل ابن حزم الجزء الأول ص 252.

5. الحسد

قال ابن عقيل –رحمه الله–: "افتقدت الأخلاق فإذا أشدها وبالا على صاحبها الحسد فإنه التأذي بما يتجدد من نعمة الله، فكلما تلذذ المحسود بنعم الله تعالى تأذى الحاسد وتنغص، فهو ضد لفعل الله تعالى، ساخط بما قسمه متمن زوال ما منحه خلقه، فمتى يطيب بهذا عيش ونعم تنثال[23] انثيالا؟ وهذا المدبر [24] لا يزال بأفعال الله متسخطا، وما زال أرحم الناس للنظر في عواقبهم، ولو لم يكن إلا النزع وحشرجة الروح فكيف بمقدمات الموت من البلى والضنى؟ فمن شهد هذا فيهم كيف يحسدهم؟ والله سبحانه أعلم.[25]

وكيف لا يكون الحسد مرضا فتاكا وبسببه قتل قابيل هابيل ومكر إخوة يوسف به وبأخيه، ونال الصالحون على مرّ العصور ما نالهم من أذى بسبب الحاسدين! حتى ذكره الله في كتابه العظيم ليستعاذ من شره فقال: (ومن شر حاسد إذا حسد)[26] وجاءت السنة تحذر منه وتصف الوقاية والعلاج منه في عدة أحاديث.

ومن أعراض هذا المرض أن يكون صاحبه كثير المراقبة لمن حوله كثير المتابعة لأحوالهم ونعم الله عليهم .. كثير الاغتمام والهمّ، ذلك أنه يضر نفسه قبل أي أحد آخر، فلا يذكر نعم الله عليه ولو ذكرها لكفاه ذلك عناء الحسد! وفي الحديث في الأثر (إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب). وأما كيف يضر بالصف الجهادي، فبعض الحسد يدفع بالحاسد للسعي في مضرة أخيه، فيؤذيه

---

[23] أي تتابع
[24] أي المعرض
[25] الآداب الشرعية (1/ 159)
[26] سور الفلق.

بالكلام والسعي الجاد لطرده من عمله أو تشويه سمعته! فيتحول الحسد لظلم، وخاب من حمل ظلما! ولا شك أن الحاسد يعترض على قسم الله سبحانه وتعالى ويستكبر بذلك على مقسم الأرزاق بين الناس. وبعض الحسد قد يزرع البغضاء ويدفع بالحاسد لبغض أخيه المجاهد والكيد له وتمني الشر له، يفرح لخبر مصيبة تصيبه ويحزن لخبر فرح يمسه، يسارع في نشر الإشاعات المضللة عنه ويأبى الرجوع للحق وإنصاف صاحبه ومعذرته مهما ثبتت براءته! وقد يمكر لأخيه مكرا عظيما وقد يتحول لعدواني يتهجم ويعتدي ويسب ويشتم ويتهم ويخوّن حين لا يطال من المحسود شيئا! فسبحان الله ما أتعس الحاسد!

وقال ابن القيم – رحمه الله– في كتابه الفوائد: "أصول الخطايا كلها ثلاث: الكبر، وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد، وهو الذي جرّ أحد ابني آدم على أخيه. فمن وقي شر الثلاثة فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر والمعاصي من الحرص والبغي والظلم من الحسد".

الدواء:

قال رسول الله – ﷺ– في دواء الحسد: (إذا حسدت فلا تحقق) يعني لا تعمل على أن يضر المحسود، وعلى من أصيب بالحسد شغل نفسه عن غيره ممن يحسد باستمرار، وأول خطوة للعلاج هي كفّ فضول البحث عن أخبارهم أو متابعة أحوالهم والانكباب بدلا من ذلك على عبادته ونفسه، وكلما لفت انتباهه ما يحسد عليه.. نظر في نعم الله عليه واستذكر آيات الرزق والقدر والقسمة التي قسمها الله

بين عباده ليختبرهم بها في هذه الدنيا. وقلب الحسد لغبطة، فيغبط أخاه ويسأل الله من فضله.. وقد رفع الله بعض الناس على بعض درجات ليبلوهم فيما آتاهم، فليستعذ بالله من هذا المرض وليسأل الله الشفاء العاجل وليداويه بالانشغال بالطاعات والابتعاد عن مراقبة الناس والعد لفلان وفلان مما آتاهم الله من فضل، وليسأل الله من فضله العظيم.

6. الغضب

ما الغضب إلا مفتاح كل معصية .. قال ابن القيم – رحمه الله– في كتابه الفوائد: "أوثق غضبك بسلسلة الحلم فإنه كلب إن أفلت أتلف".. وقال الحسن البصري – رحمه الله – : "إذا شئت أن ترى بصير لا صبر له رأيته وإذا شئت أن ترى صابرا لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت بصيرا صابرا فذاك قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)[27]. ولهذا تشبه النفس بالنار في سرعة حركتها وإفسادها وغضبها وشهوتها من النار والشيطان من النار.."

وفي السنن عن النبي – ﷺ=: (الغضب من الشيطان والشيطان من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) [28].

[27] السجدة 24

[28] ضعيف أخرجه أحمد (4-226)بسند فيه عروة بن محمد وهو مقبول. .

وبعض الغضب وبال على الصف الجهادي فأكثر الغاضبين الذين لا يملكون السيطرة على أنفسهم قد يقدمون على أفعال لا يمكن تصحيحها أو تعديها. فمنهم من قد يحمل سلاحا ويضرب به صاحبه أو يفسد عملا كاملا بتهور انتصارا لنفسه .. وقد يقدم على تصرفات يصعب محو آثارها في العمل الجهادي، من كلمة تخرج إلى فعل يصدر إلى نهايات مؤسفة مؤلمة، فضلا عن حجم الهوّة التي يحفرها هذا الغضب بين الإخوة في الصف الواحد فتتولد الأحقاد وتقود الأهواء الانتصارات للنفس وتتشوه الصورة الناصعة بذنوب كالحة ويا لها من خسارة فادحة، هذا ما يجعل منه مرضا يتمكّن من القلوب فيفسد عليها سلامتها.

وقد يقول قائل ولكن الغضب لا يعدو رد فعل أو انفعال له عمره المحدود، ولا يصح تصنيفه كمرض من أمراض القلوب، ولكن التجربة والمتابعة لبعض النفسيات تؤكد أن بعض الأشخاص يبالغون في الغضب بسبب وبلا سبب ما يجعل منه داء لا ردة فعل أو انفعال، فهو مرض يظهر صاحبه متذمرا أغلب الوقت وعلى وشك الانفجار لأتفه سبب، كثير الشكوى وسريع المخالفة وصعب الإرضاء .. تظهر أعراض الغضب على جوارحه ولا يميّز بين القريب والبعيد ولا بين الصديق والعدو كما لا يحترم أحدا! وإذا سئل عن سبب هذا التجهم يتحجج بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغيرة على الدين.. في حين كل مواقف غضبه لا تتعدى تنطعا في الدين ومبالغة في الغضب لسبب تافه! وإن كان غضبا للنفس فقد يصل لجاهلية لا تحمد عقباها والعياذ بالله، ومنهم من لا يتردد في القتل والوقوع في جريمة قتل نفس بغير حق! وقد شهدنا مآلات بعض الغاضبين فما أسهل توظيفهم في الفتن وجرّهم للخصامات وتأليبهم على إخوانهم ودفعهم في الخطوط الأمامية للخلافات..

وفي الأخير ينتكس الغاضب ويتراجع ومنهم من يترك الجهاد تماما أو يتورط في نهاية مؤسفة! وفي الواقع فإن صورة الغاضب تعكس تمكنا تاما من شيطان الغضب منه فيعمي بصره ويفقده كل حكمة وعقل ثم يقوده لما يريد من سوء!

وقد حذرنا النبي – ﷺ– من الغضب تحديدا في الحديث الذي جاءه فيه أعرابي يسأله قائلا: أوصني يا رسول الله، فقال له رسول الله – ﷺ = : "لا تغضب" فقال الأعرابي: زدني يا رسول الله، فقال له في الثانية: "لا تغضب"، فكرر الأعرابي طلبه وقال: "زدني يا رسول الله"، فقال رسول الله – ﷺ– في الثالثة: "لا تغضب". كررها ثلاثا فلنتأمل فقه رسول الله – ﷺ.

وقد فقه الصحابة – رضي الله عنهم– هذا الأدب من رسول الله –ﷺ – كما ظهر في كثير من المواقف الجليلة، منها ما كان مع عبد الله بن الزبير ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما– .. حيث كان لعبد الله مزرعة مجاورة لمزرعة معاوية في المدينة وذات يوم دخل عمال مزرعة معاوية إلى مزرعة عبد الله بن الزبير، فغضب وكتب إلى معاوية بدمشق وقد كان بينهما عداوة سببها الفتنة التي كانت آنذاك بين علي ومعاوية – رضي الله عنهما– جاء فيها:

من عبد الله بن الزبير إلى معاوية بن هند آكلة الأكباد أما بعد:

فإنّ عمالك دخلوا مزرعتي فمرهم بالخروج منها أو فو الذي لا إله إلا هو ليكوننّ لي معك شأن.

فماذا كان رد معاوية – ﷺ – الذي عرف بالحلم والعقل حين استلم رسالة عبد الله ابن الزبير .. لقد استقبلها برحابة صدر ورجاحة عقل .. فعرض رسالته أولا على ابنه يزيد قائلا له: إنّ ابن الزبير أرسل لي رسالة يهددني بها فماذا ترى؟ فما كان من يزيد إلا أن قال: أرسل له جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتيك برأسه.. لكن معاوية لم يكن يبحث مثل هذا الرد، بل كان يبصر ردا جميلا يحتوى غضب أخيه ابن الزبير – رضي الله عنهما– فقال: بل هو خير من ذلك زكاة وأقرب رحما ... وكتب له الرسالة التالية:

أما بعد: فو الله لو كانت الدنيا بيني وبينك لسلمتها إليك، ولو كانت مزرعتي من المدينة إلى دمشق لدفعتها إليك، فإن وصلك كتابي هذا فخذ مزرعتي إلى مزرعتك وعمالي إلى عمالك فإنّ جنة الله عرضها السموات والأرض.

فما أن قرأ عبد الله بن الزبير –رضي الله عنهما– هذه الرسالة حتى بكى بكاء جعله يسافر إلى معاوية في دمشق ويقبّل رأسه ويقول له: لا أعدمك الله حلما أحلك في قريش هذا المحل.

الدواء:

على المصاب بهذا المرض أن يعلم بأن إيقاد النار على الغضب ليطفأه هو قمة الحلم، وقد أوصى النبي – ﷺ– الغضبان أن يتوضأ فيهدأ غضبه وإن كان واقفا أن يجلس وإن كان جالسا فليضطجع وإن كان مضطجعا فليغير اضطجاعه على الجانب الآخر وهكذا يغير الوضعية التي يكون عليها فيهدأ شيطان الغضب بداخله، وقال – ﷺ–: "ليس الشديد في الصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه

عند الغضب". وقال أحد الصالحين -رحمه الله-: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيىء والظن السيىء.

فعلى المجاهد المبتلى بسرعة الغضب وفقد السيطرة على النفس، بالصبر بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن الشكوى، والجوارح عن ردود الغضب والجزع. وأن يعود نفسه تحمّل متاعب الحياة والجهاد في جميع أشكالها وألوانها.. مؤمنا بقضاء الله وقدره فـ (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن يبرأها إنّ ذلك على الله يسير* لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبّ كل مختال فخور).

وفي نفس المعنى جاء في الحديث : " إني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة"، (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم).

ورحم الله من قال:

واذا أتتك مصيبة فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أرحم

وإذ شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- : كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، ولا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، أما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا، ومحاربة النفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة.

وقال رحمه الله: الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرَّمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

ثم إن التنطع الذي يدفع بصاحبه للغضب مرض آخر وجب علاجه، وعلى المصاب أن يرجع لأهل الذكر في كل مسألة يتعرض لها فلا يحمل نفسه جريمة الفتوى بغير علم أو الجور والظلم في الحكم أو تكليف الناس ما لا يطاق حتى يصل الأمر لتحريم الحلال وهو من أخطر مداخل الشيطان!

ثم على من وجد في نفسه ميولا للغضب بهذا الشكل في الصف الجهادي أن يعود نفسه حسن الظن بإخوانه والصبر على معاشرتهم قال أبو الدرداء – رضي الله عنه – (معاتبة الأخ خير من فقده، ومن لك بأخيك كله فأعط أخاك وهب له ولا تطع في كاشحا فتكون مثله).[29]

وقيل أقل الناس غضبا أكثرهم عقلا، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا وإن كان للآخرة كان حلما وعلما.

7.التجبر والجرأة على الظلم

للأسف تتغير بعض النفوس لمجرد تسلمها سلطة أو إمارة .. تتغير بشكل يدعو للعجب، وما ذلك إلا لجهل بأسرار الإمارة الناجحة، فالمجاهد الذي ابتلي بهذا

[29] الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن المفلح (1/304)

الداء يخلط بين مظهر الهيبة والاحترام وبين التجبر والظلم، فالهيبة والاحترام تعكسها تقوى الله والعدل والبذل الصادق.. أما التجبر والظلم فيعكسه العلو في الأرض والكبر وعقدة النقص، وقد يظهر هذا الداء مع المجاهد حين يرتقي في منصب أو يحمّل مسؤولية تدريب جند أو يؤتى إمارة فيستكبر على جنده ويتصف بالتجبر ولا يتردد في الظلم. ولا شك أنه داء كثيرا ما يخلق الأحقاد في نفسية الجنود، فعلى من ابتلي بهذا المرض أن يسارع في علاجه قبل أن تحل عليه النقمة من دعوات في سحر من صادق نحسبه.

الدواء:

على المجاهد الذي أصيب بداء التجبر والظلم إخضاع النفس للتواضع الذي هو خلُقْ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيقبل الحق من أي كانا قائله ويخفض جناحه للمؤمنين ويحسن معاشرتهم .. فلا يتفضل عليهم بعمل أو بنسب أو بجاه وما تواضع مرء لله إلا ورفعه، ويصف العارفون حالة هذا المصاب بمشهد للتواضع والتجبر يتجاذبان مساحة القلب فمن تواضع ذلّ تجبره ومن تجبره أقصي تواضعه.

ولا زال التواضع صفة من صفات المؤمن الصادق .. وعنوان خلقه وكرمه وإحسانه. قال تعالى في سورة القصص: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) ولا يعني التواضع الذل والخنوع بل هو التواضع لله في محله.

وقال رسول الله – ﷺ–: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة مِن كِبَر ". وقال أيضا : "أنه قد أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد.

وليستذكر المصاب بهذا المرض عظمة الله سبحانه وتعالى وجبروته.. قال عمر – رضي الله عنه– حين رأى رجلا يخطر في مشيته: "إنّ للشياطين إخوانا "..وهو عمر –رضي الله عنه– خليفة المسلمين الفاروق، الذي من شدة تواضعه يقول أنس –رضي الله عنه– سمعت عمر بن الخطاب يوما وقد خرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: "أمير المؤمنين بخ بخ.. والله لتتقين الله أو ليعذبنك"، ولا زال هذا دأبه رضي الله عنه، يؤنب نفسه ويشد عليها وهو من هو بمكانته العظيمة في الإسلام.

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما–: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك.

ولنتأمل كيف كان رسولنا – ﷺ– في مقام الفتح متواضعا لله منيبا، فعن قيس بن مسعود –رضي الله عنه– أن رجلاً كلم رسول الله –ﷺ– يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال النبي –ﷺ–: "هوّن عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد".

ومن أراد أن يشاهد تلك الصورة المشعة بنور التواضع في سيرة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والتي لا يمل المرء من تكرار قراءتها.. يوم فتح مكة، عندما دخل رسول الله –ﷺ– فكان ذقنه على راحلته متخشعا في وقت كان دخوله لمكة عزة

ونصرا وتمكينا كبيرا.. ودحرا لأعدائه.. وفتحا عظيما.. وهكذا سجل التاريخ دخول قائد الفاتحين متواضعاً لله وشاكراً – عليه أفضل الصلاة والسلام.

وهذا قبس من تواضع أبي موسى الأشعري –ﷺ– في عهد خلافة الفاروق عمر بن الخطاب – ﷺ– حين انتدب أبي موسى الأشعري ليكون واليا على الكوفة، وما أن وصل – ﷺ– الكوفة حتى اعتلى إحدى منابر مساجدها ووقف خطيبا في الناس فقال: يا أهل الكوفة إنّ أمير المؤمنين أرسلني إليكم لأكنس لكم شوارعكم وأعلمكم دينكم.

فطوبى لمن تشبه بالصالحين!

8. قلة التقوى وقلة الحياء

قد يستذكر بعض المجاهدين مواقف مذهلة لقلة تقوى أحدهم أو لاحيائه، ولكنه موقف يحدث في الحياة الجهادية مع بعض النفوس البشرية التي تعاني من داء قلة التقوى والحياء، ذلك أن حقيقة هذه التقوى وهذا الحياء تظهر في مواقف الامتحان وعند التعاملات والاحتكاكات، والتقوى هي مخافة الله عزوجل والعمل بطاعته رجاء الثواب والمغفرة وطمعا في الفوز بجنته وترك المعاصي خشية عذاب جهنم وهي تتلخص في اتباع أوامر الله تعالى والانتهاء عن نواهيه والقيام بالحدود الشرعية كما أمر. ولا تتحقق التقوى إلا مع قلب معلق بحب الله يعبده كأنه يراه فإن لم يكن يراه

فهو يراه وذلك هو الإحسان كما لا تقر التقوى في قلب مؤمن إلا واستقر معها الحياء ملازما والحياء شعبة من شعب الإيمان.

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله–: إنّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. واختصر التقوى علي –رضي الله عنه– بقوله: الخوف من الجليل والإيمان بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل.

فمن جهل عليك في خصام أو قلّ أدبه بلا حياء أو تصرف تصرفا يعافة التقي الحيي! فاعلم أنه لم يستوعب بعد حقيقة التقوى والحياء..! ثم إن من أبرز صفات المصاب بهذا الداء الجرأة على الفحش في القول وقلة الأدب دون خشية من الله أو احترام لمن حوله، وقد يقدم على أخذ ما ليس له وإيذاء جيرانه بلا أدنى خوف أيضا! وصاحبه لا يؤتمن عند الهدوء فما بالك حين الغضب! وغالبا ما يكون هذا نتاج الأخطاء في التربية، فبعض المجاهدين التزموا حديثا بالإستقامة ويجدون صعوبة في الالتزام خاصة في مواقف الاحتكاك مع إخوانهم أو التفاعلات التي تخرج فيها النفس عن السيطرة، أو حتى في بعض السلوكات اليومية التي اعتادوا عليها قبل النفير، وهذا يعكس أهمية التربية قبل الجهاد، ومن دخل الصف الجهادي لابد أن يحصل على قدر كاف من الدورات الشرعية والعلمية لضمان ترسيخ مقومات التربية الإسلامية السليمة فيه فيحسن خلقه وتحسن ردوده وينسجم بشكل أروع مع إخوانه ومحيطه، ولا جهاد بلا استقامة ولا استقامة بلا حياء وتقوى!

الدواء:

من فشل في امتحان التقوى عليه بمحاسبة نفسه محاسبة صادقة في تصرفاته وأخطاءه فيستغفر الله كثيرا ويتراجع عن أخطائه، وليتزود بالعلم والتعلم ولينظر في تفاسير آيات القرآن الكريم التي ذكر فيها المتقون وليتدبرها بعمق لتقرّ في قلبه فلا تتزعزع.

يقول الامام أحمد رحمه الله: كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف. والخوف: هو اضطراب القلب ووجله من تذكر عقاب الله وناره ووعيده الشديد لمن عصاه والخائف دائما يلجأ إلى الهرب مما يخافه إلا من يخاف من الله فإنه يهرب إليه.

كما قال أبو حفص – رحمه الله-: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل، فإنك إذا خفته هربت إليه. فالخائف هارب من ربه إلى ربه كقوله تعالى: ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين.

ومعنى ففروا الى الله: أي الجئوا اليه عند سماعكم آياته الكريمة واخشعوا لها حق الخشوع.

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدّعت من خشية الله، فكيف بكم وقد سمعتم و فهمتم؟

ولنتأمل فقه أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أحب الرجال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- ورفيقه في الهجرة المباركة وصاحب منزلة رجحت بها كفته على كفة إيمان الأمة! حين يقول: والله لو كانت إحدى قدميّ في الجنة ما أمنت انتقام الله.

وتلقى المسؤولية الكاملة على فرسان الدعوة للحد من آثار هذا الداء واقتلاعه من القلوب، ما يعكس أهمية الدعوة في عبادة الجهاد .. فإن كان الجهاد قلبا فلا شك أن الدعوة والتحريض نبضه!

تزود من التقوى فإنك لا تدري   إن جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من سليم مات من غير علّة   وكم من سقيم عاش حيا من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح آمنا   وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

9. الكذب وإخلاف الوعود:

قال ابن القيم – رحمه الله– في الفوائد: "إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه ويفسد عليك تصويرها تعليمها للناس فإن الكاذب يصور المعدوم موجودا والموجود معدوما، والحق باطلا والباطل حقا، والخير شرا والشر خيرا فيفسد عليه تصوره وعلمه. ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة نزاعة إلى العدم مؤثرة للباطل. وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعلى إرادي.. فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي – ﷺ– : (إن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار)[30]. وأول ما يسري الكذب من النفس إلى

[30] أخرجه البخاري

اللسان فيفسده ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها. ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب. فكل عمل ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته فما استجلبت مصالح الدينا الآخرة بمثل الصدق ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[31]. وقال (فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم)[32]. وقال (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)[33] ".

وقال رسول الله – ﷺ–: "أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، واذا وعد أخلف (أو اذا عاهد غدر) ... وإذا اؤتمن خان .. وإذا خاصم فجر".

وقال عمر – رضي الله عنه–: لا تنظروا إلى صلاة المرء وصيامه ولكن انظروا إلى صدقه في الحديث.

وروى أبو داود وحسنه الشيخ الألباني أن أم عبد الله بن عامر قالت لولدها: تعال أعطيك، تعني أعطيك حلوى، فقال لها رسول الله ﷺ: "وَمَا أَردت أن تُعطِيه؟"

[31] التوبة 119.
[32] محمد 21.
[33] التوبة 90.

قالت: أُعطيه تمْرا .. فقال لها رسول الله -ﷺ- : "أَمَا إِنَّكِ لوْ لمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَليْكِ كِذْبَةٌ".

وقال ابن مسعود – رضي الله عنه-: "لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى ينكت في قلبه نَكتة سوداء حتى يُسوّد قلبه فيُكتب عند الله من الكذابين".

وفي الواقع لم أر أكثر ظلما للنفس من الاستهانة بالكذب وإخلاف الوعود وما هو من قبيل هذه الأعمدة الرئيسية في أخلاق المسلم وسلوكه المطلوب. وإن بعض الناس قد يصلون أراضي الجهاد وهم لا يعتبرون الكذب ذنبا ولا يحسبونه منقصة أو مذمّة، وقد يتمادون في تبرير الكذب حتى لا يمكن لأحد الثقة فيما يقولونه من خبر أو قول، ذلك أن من كان دأبه الكذب، فلا يصدق له حديث والله المستعان بل يصل الكذب عنده حتى في الأمور التي لا تحتاج لكذب! عافانا الله من هذا المرض العضال!

الدواء:

أيها المستهين المستعين بالكذب، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[34] إنه الأمر الجلي من الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة لأهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين. فكيف لمؤمن أن يكون كاذبا..كيف يرضى لنفسه الدنيّة والاتصاف بصفة النفاق المذمومة. ولا زال دعاء الأنبياء والصديقين والصالحين بأن

[34] التوبة 119.

يجعلهم الله من الصادقين قال تعالى: (وقل ربّ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق)[35]. وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إنّ الصدق يهدي إلى البر وإنّ البرّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يَصدُق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدّيقا وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابا".

وكفى بالكذب صفة ملازمة للمنافق لتدفع بالمؤمن المجاهد للنأي بنفسه عن هذا الذلّ والخزي، ولا شك أن صفة المؤمن الصدق وعنوانه الصدق وطريقه الصدق ومن باب أولى المؤمن المجاهد. قال الله تعالى: (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) وقال أيضا: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم)[36].

ولا يمكن أبدا أن يجتمع الكذب والإيمان بمكان، ومهما طال عمر الكذب فإن عاقبته الخسران المبين، قال تعالى : (فنجعل لعنة الله على الكاذبين)[37].

وقد تعددت الأحاديث النبوية الشريفة التي تحذّر من عواقب الكذب: قال -صلى الله عليه وسلم-: "يُطبع المؤمن على كلّ شيء إلا الخيانة والكذب". وما أعظم حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن بلال بن الحارث المزني -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظنّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من

[35] الإسراء 80.
[36] المائدة 119.
[37] آل عمران 61.

سخط الله تعالى ما كان يظنّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه".

فأيها المستهين بالكذب تب إلى الله توبة نصوحا، واتعظ مما سيق لك من آيات وأحاديث، قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة. واعلم أن أصغر كذبة تستهين بها قد تكون سبب هلاكك، فلا تكذب ولو مزاحا، ولا تمتهن الكذب في حديث ولو من باب الدفاع عن النفس، وإن كان ولابد لك من مداراة فعليك بالمعاريض فهي أنجى وأزكى وأطيب للنفس لا يحيك معها صدر وقد أعذرك الله بها واستعان بها السابقون.

10. الطمع والجشع

قال ابن عقيل – رحمه الله– : "لو علمت قدر الراحة في القناعة والعز الذي في مدارجها، علمت أنها العيشة الطيبة، لأن القنوع قد كفي تكلب طباعه، والطبع كالصبيان الرُّعن[38]، ومن بلي بذلك أذهب وقته في أخس المطالب، وفاتته الفضائل، فأصبح كمربي طفل يتصابى له ويجتهد في تسكين طباعه، تارة بلعبة تلهيه وتارة بشهوة، وتارة بكلام الأطفال، ومن كان دأبه التصابي، متى يذوق طعم المرجلة؟ ومن كان في طبعه كذا فمتى يستعمل عقله؟[39]

[38] جمع أرعن أي حمقى
[39] الآداب الشرعية، (2-361)

الطمع لغة: هو الشره وهو الاستحواذ على ما فوق الحاجة. واصطلاحا: هو الحصول على ما لا يحق لك أخذه دون عناء أو مجهود. والجشع هو الطمع في ما عند غيرك!

وقال ابن عمر – رضي الله عنهما–: ليس الشحّ أن يمنع الرجل ماله وإنما الشحّ أن تطمع عينه فيما ليس له أي تأكل حق أخيك ظلما من مال وغيره وهو قريب إلى حد ما من الحسد لأنّ الحسد هو تمني زوال نعمة الآخرين.

وللأسف فإن بعض الأقوام ابتلوا بالطمع والجشع فترى أعينهم على حق زيد أو منصب عمر، قد يمتهن أحدهم الالتواء والحيلة للحصول عليه، ومنهم من يستغل حاجة أخيه فيأخذ منه أكثر من حقّه ويؤذيه في حين هو بأمس الحاجة لعونه. وقد يزداد هذا المرض في بعض النفوس حتى يصبح التعامل مع المصاب يكسوه الظلم والهضم للحقوق، ولا يأمنه أحد على حق! والمصيبة عظمى إن كان صاحب هذا المرض في منصب خدمة أو رعاية فيزيد العسر عسرا ويفسد ولا يصلح! ومن صفاته سهولة أخذه من مال ليس له وسرعة تبريره للفعل! لا يرضى بما لديه وعينه دائما على ما عند غيره!

الدواء:

لا أفضل من زرع الورع والقناعة في هذه النفوس المبتلاة بالطمع والجشع، قال –ﷺ– وهو يوصي أبو هريرة –رضي الله عنه–: يا أبا هريرة! كن ورعا تكن أعبد الناس. ولشدة تمسك الصحابة – رضي الله عنهم– بالورع كانوا يهجرون أغلب الحلال خشية الوقوع

في الحرام. وكما قال عمر –رضي الله عنه–: كنا على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم– ندَعْ تسعة أعشار الحلال خشية الوقوع في الحرام.

و يقول الامام النابغة التابعي –رحمه الله–: ما رأيت أسهل من الورع ما حاك في نفسك فاتركه.

وقال أحد العلماء –رحمهم الله–: السعيد من لا يغترّ بالطمع ولا يركن إلى الخدع ومن أطال الأمل نسي العمل وغفل عن الأجل.

ورحم الله من قال: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة والنفس طماعة عوّدها القناعة.

ولا شك أن الطمع والجشع من أعمدة التشبث في الحياة الدنيا وهو غريزة في النفس الخبيثة إذا تمكنت منها أفسدتها. فكيف يمكن لمن فرّ لله يجاهد في سبيله أن يبقى قلبه متعلقا بشيء من الدنيا، وربي هذا أمر عظيم ومصاب جلل، فلا تساوي الدنيا عند الله جناح باعوضة! ثم هل يقبل لنفسه أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ثم لما لا يرضى بما قسمه الله له، ويسأل الله من فضله! أليس هذا أهدأ للنفس وأكثر طمأنينة وسكينة بل هو العزّ بعينه وعيشة الملوك في الدنيا!

هي القناعة فاحفظها تكن ملكا لو لم يكن لك منها إلا راحة البدن!

فما أجمل القناعة، والرضا بالقليل والشكر عليه وهذا تماما كوصيّة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لثعلبة بن حاطب عندما سأله أن يدعو الله له بأن يزقه مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا ثعلبة قليل يكفيك خير من كثير يطغيك، قليل تؤدي شكره خير من كثير

لا تطيقه، ألا ترضى مثل نبيك؟" فما كان مصير ثعلبة الذي ازداد إلحاحا ولم يأخذ بوصية رسول الله -ﷺ-، لقد كان مصيره الموت على النفاق.

إن القناعة تورث لذة عظيمة وسعادة بالغة وغبطة كبيرة تعكسها لنا صورة هذا المشهد حين دخل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- ذات يوم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورآه يضطجع على الحصير وقد علم على جنبه الشريف فقال له: يا رسول الله! أتنام على الحصير وملوك كسرى والروم تنام على الحرير؟ فكان جواب المعلم الحبيب -ﷺ-: "يا عمر! أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟"

فعلى المجاهد الذي ابتلي بهذا المرض ونسي، أن يزن الأمور بميزان الآخرة، فتظهر له حقيقتها التافهة.

فاللهم لا تجعلنا ممن طغى وآثر الحياة الدنيا..

واجعلنا ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى..

11. حب الإمارة

حبُّ الرياسة داءٌ لا دواء له   وقلَّما تَجدُ الراضين بالقسَمِ

النجاح في أعين صاحب هذا المرض يعني الإمارة، تنحصر كل الإنجازات في نظره في الإمارة، يعيش ويخطط ويحلم ويفكر ليله ونهاره في كيف يحصل على الإمارة، لا يهمه الوسيلة بل الأهم عنده الغاية، حتى لو كان الوصول إليها على حساب

الافتراء على أخيه أو ظلمه أو خداع قيادته أو التسلق على إنجازات غيره! يتقرب لأصحاب القرار بكل ما يمكنه من مظاهر التقوى والاجتهاد فإن حصل على المراد ظهر منه التشبث بالإمارة المستميت، فلا يجاهد إلا أميرا ولا يقبل أن يفصل إلا تحويلا! فيبقى في حلقة الإمارة حتى يشاء الله أن يرحل! ومن أبرز صفاته تودده للقيادات وحرصه على سمعته أيما حرص وعمله الدؤوب على إقرار أعين أصحاب القرار في العمل.. لا يستحي من طلب الإمارة ولا يترفع عن طلبها.. وهذه من أسوء صفاته. إذ أن العقلاء لا يعطون إمارة لمن طلبها.

<u>الدواء:</u>

حب الإمارة إذا سرى في جسد المجاهد لا أفضل من رباطه على خطوط القتال والموت حتى يرى بنفسه حقيقة هذا الجهاد، إنه بيع لله والله اشترى! ولا فرق بين أمير وجندي في هذا السباق، بل رفع الله بعضنا على بعض في الدنيا ليبلونا أينا أحسن عملا وأينا أكثر صبرا وأينا أكثر تقوى وأينا أكثر عدلا.. فلا يظن هذا الحالم بالإمارة أنها النجاح الحقيقي بل إن أقواما بلغوا مناصب الإمارة ثم انتكسوا انتكاسا، فتركوها هربا وخوفا على دينهم وبدأت دعوات المظلومين تصعد في السماء وهم في خشية من استجابة من الله تهلكهم.. ليس مقام الإمارة مقام راحة وشرف بل مقام كدّ وتعب وتكليف، ومن لم يع هذا لن يكون أهلا للإمارة، ومن علمه ورغبت نفسه فيه فهو مستهين بعظم المسؤولية! وقد شهد الجهاد رجالا كالجبال كانت الإمارة تلهث خلفهم وهم يستخفون يخشون أن يذكر اسمهم تورعا وخشية من الله وحين استلموها كانوا لها أهلا فأعطوها حقها وأحسنوا كما نحسبهم.

إن هذا الجهاد امتحان صدق، والصدق يكون بالعمل في سبيل الله وليس في سبيل أن يقال فلان أمير، وهذه من دقائق أسرار الفوز التي قد يغفل عنها الكثيرون!

ولا شك أن أفضل الأمراء هم أولئك الذين اختيروا بدون رغبة من أنفسهم ولا سعي وحرص على الإمارة، أولئك الذين ما إن تسلموا الإمارة حتى طلقوا النوم وهجروا الراحة وحملوا همّا لو وزع على أهل الجهاد لكفاهم!

والعلاج الأنجع لمن أصيب بهذا المرض فضلا عن الرباط في الخطوط الأمامية هو الكفّ التام عن التفكير في مزايا الإمارة بل التركيز على مساوئ الإمارة وعظم المسؤولية فيها، واستذكار قصص القيادات السابقة التي لها تجارب مؤلمة أو حزينة مع الإمارة. وليرضى بما قسمه الله له وليبذل جهده في إتقان عمله وحفظ ثغره فهذه هي الإمارة الحقيقية.. ثم ليعلم تمام العلم أن طلبه للإمارة يجعله غير كفؤ للحصول عليها وأن النجاح الحقيقي هو في العمل ورجاء قبول الله هذا العمل .. ومهما دنت مرتبة العامل في أعين الناس فهو عند الله إن أخلص وصدق كأشعث أغبر إذا أقسم على الله أبره.

12. الغيبة والنميمة:

في حديث أنس قال: قال رسول – ﷺ– : لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: "هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم"[40]

فمن أقبح المشاهد التي يمكن أن يشاهدها مجاهد في ساحات الجهاد هو مشهد جلسة غيبة ونميمة وأكل للحوم المجاهدين بلا حق! وإن المرء ليعجب كيف يجد بعضهم الوقت لغيبة أخيهم أو النمّ عليه، شغلهم الشاغل تقارير مفصلة عن زيد أو عمر أو فلان أو علان، لا يرحمون الخلق ولا يقبلون الأعذار ولا يكفون شرورهم عن غيرهم!

صفتهم كثرة المتابعة والجلسات الكثيرة بلا فائدة، ما لم يحصلوا عليه في جمع بحثوا عنه في الاتصالات والمكالمات الهاتفية، يعجب المرء من شدة ولعهم بأخبار الناس وشماتتهم عند مصاب أحدهم ودرجة اهتمامهم بما يحصل مع إخوانهم، ونسوا أو تناسوا أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.. بل إن بعض القلوب وصلت بها درجة المرض أن تمتهن مهنة المراقبة وتؤسس شبكة لتناقل الغيبة يشبعون بها الرغبات الخبيثة وقد عميت بصيرتهم تماما عن فداحة هذا الذنب.

[40] أخرجه أحمد (224/3) وأبو داود برقم 4878 وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 5213.

الدواء:

لا أفضل من حملات دعوية مكثفة بين صفوف المجاهدين للتحذير من هذا المرض الخطير وزرع كل وثائق المحبة والأخوة بين المجاهدين وتفادي أي شحناء أو تباغض، مع السعي الجاد في الإصلاح عند الحاجة، كما لا تفتر همّة الدعاة والمصلحين بالنشرات الدعوية والمطويات المذكّرة والدروس والمحاضرات، وعلى من يحضر مجلسا فيه غيبة ونميمة أن ينهى عن هذا المنكر ويختص المغتابين بالنصيحة في الله ويحرص على هدايتهم للتخلص من هذا المرض.

13.المجاهد فوق الشريعة

وهو مرض يصيب بعض المجاهدين فيرى أحدهم نفسه فوق كل انتقاد أو نصيحة تراه يلوح بصك جهاده في كل مواجهة أو عند كل تقصير، وربما نشاهده عند بعض المهاجرين تحديدا، حين يحتضنهم الأنصار ويفتحون لهم بيوتهم وقلوبهم فيصيب بعضهم نوع من الاعجاب بالنفس الذي يلفه شعور بالتميّز والخصوصية التي في نظر المصاب وعند مواقف المحن تمثل حصانة من نوع خاص عنوانها لقب "مهاجر"، وهذه الحصانة تسمح له كمهاجر أن يخطأ ولا يحاسب وأن يهمل العمل ولا ينتقد وأن يسبب المشاكل والفوضى ولا يحاكم، وأهم أعراض هذا المرض ازدراء الأنصار والتعامل مع الخلق كضامن للجنة وواثق من الفوز وحامل لصك الشهادة في يده..

وهو من أخطر الأمراض التي قد تنال من قلب مهاجر، هجر الدنيا ليرضي ربه فإذا به يهجر هجرته ليقع في وحل الغرور! فإن دعي لمحكمة استهان بالحكم وأهمله وإن دعي لشرع الله ترفع كأنه غير معني به! وهو الذي حمل سلاحه ابتداء لتطبيقه، وهذا بلا شك من تداعيات الغفلة وتزيين الشيطان والبعد عن الصحبة الصالحة والغرور القاتل الذي يتضخم مع الأيام حتى يعمي بصيرة صاحبه ويضعف قلبه ويتمكن منه فلا يقبل نصحا ولا يتنازل لمصلح ولا يقف عند حق وتراه يردد بلا تبصّر أنا "المهاجر"!

الدواء:

إن هذا المرض للأسف إذا وصل لحد التمكن من قلب المهاجر فكل علاج بالنصيحة قد يكون تأثيره ضعيفا جدا، ولكن لا بد من محاولة وبشتى الطرق الدعوية لإقامة الحجة على المصاب به، ولو استدعى الأمر للمناظرة العلنية لعلها تحدث في نفسه خشية من أن يعرف الناس خطأه، وعلى من يعيش في جواره أن يعظه بطريقة غير ملفتة ويتحين الفرص في إيقاظ نار الخشية في صدره وتذكيره أن الهجرة شرف لمن صدق وحفظ حقوقها، وأنها مهلكة لمن خان وأهمل حقوقها..! وأن لا هجرة بلا احترام وحب للإنصار في الله وصبر على معاشرة الإخوان وزهد في الدنيا وتواضع للخالق، وإلا فهي مجرد ادعاءات ومزاعم ولدت من رحم عقيم!

كما لا ننسى دور الدعاة والمصلحين في العناية بنشر العلم والمفاهيم السليمة التي يستذكرها أهل الجهاد فيبنون عليها سلوكم وردودهم بما يرضي الله وهذا ثغر وجب الوقوف عليه بجد وإدراك.

14. حمى الطلاق والزواج

مع الأسف أصبح هذا الداء منتشرا عند بعض المجاهدين، حتى لا يكاد يفرق بينه وبين زواج المتعة لدى الرافضة! فما يلبث أن يتزوج المجاهد حتى يطلق ومنهم من بلغ عددا خياليا في مرات الزواج والطلاق، ومن ناحية فقهية فليس الإشكال في الزواج والطلاق فكلاهما أمر مباح في شريعتنا ولكن المشكلة في التمادي في ذلك والتحايل ليوافق بذلك زواج المتعة الذي يحرمه أهل السنة والجماعة لما فيه من مفاسد وأضرار بالبنية الإجتماعية والأسرية. وأيضا في الاستهانة بحجم المسؤولية في حفظ الأسرة والزوجة، ومن أبرز صفات المصاب بهذا الداء، شدة اهتمامه بالنساء والبحث عن أخبارهن، همّته محصورة في الزواج وسرعان ما يطلق لأتفه الأسباب، قد يتزوج في مدة قصيرة أكثر من زوجة وهو غير قادر على العدالة. يهمل أولاده ويهمل زوجاته وتقل مع ذلك انتاجيته الجهادية فلا يتميّز في عمله ولا يسابق وتراه يعيش في الجهاد مشغول البال، وما جعل الله لامرئ في قلبين في جوفه!

الدواء:

لا جدال في أن الله زين للناس حب الشهوات من النساء وأباح التعدد ولكن الشريعة حفظت للنساء حقوقهن وصانتهن من العبث والتحايل والاستغلال ولهذا كان الزواج بإذن الوليّ شرطا أساسيا في عقد الزواج، ثم إن المجاهد مطالب بشكل مضاعف عن غيره من الرجال بتقوى الله في أهله منذ اختياره الأول إلى معاشرته وحتى في خلافاته، فقد جعلت العصمة في يد الرجل ذلك أنه الأقدر على حفظ البيت من التفكك فإن أصبح صاحب العصمة غير قادر على تحقيق الحكمة من جعل الطلاق بيده فقد يحمل ظلما ويفسد وهو لا يشعر! ثم إن المجاهد رجل صاحب جهاد ورباط وعمل فلا يمكن له التفرغ لمسؤولياته بانشغاله بكثرة الزواج والطلاق، وعلى المبتلى بهذا المرض أن يتذكر أن له أختا أو بنتا وأن مصيرها قد يصبح كمصير من يطلق بلا تقوى ولا خشية من الله وأن الجهاد لا يقدم له حصانة فيتحايل على الشرع بزواج يفتقد الجدّية والنيّة السويّة، وهو بعقود شروطها صحيحة الهدف منها تأسيس أسرة مسلمة مستقرة، وعلى القيادة الجهادية أن تزرع الوعي بنشر الدعاة للموعظة والتذكير والتنبيه من خطر ولوج هذا الباب، فضلا عن تشديد المراقبة على الجنود الذي يستهينون بعقود الزواج والطلاق فتحفظ بذلك الحقوق وتحفظ الأسر ويعرف المجاهد أنه مسؤول قبل غيره عن ميثاق غليظ قد أبرمه أمام ربه لا يقبل التحايل ولا الاستهانة وإلا فإن الجزاء من جنس العمل ولا يأمن مسلم فتنة إن ظلم!

15. الكسل والتسويف

قد تلتقي في الساحة الجهادية بمن يكسل عن أداء وظيفته ويسوّف كل عمل فلا يؤديه في حينه ويبقى يؤجله حتى يضجّ الناس من حوله، ومنهم من امتهن هذا المرض كأسلوب عمل، فأفضل وصف له أنه مقتصد في الخيرات لا يسارع بها لله، ولا يهمه أن يقضي حاجة أحد، بل يعمل بأريحيته متى شاء، وهذا المرض أغلب من أصيب به أقيل من منصبه لما له من تداعيات سيئة جدا على العمل الجهادي الذي يكون فيه حال العاملين عادة في سباق مع الزمن للخدمة والبذل والتضحية، ولكن بعض الركون للدعة وبعض التعود على الراحة وربما بعض الوساوس من الشيطان قد يصوّر لهذا المصاب بأن الناس لن يعرفوا أهميتك إلا إذا افتقدوا عملك، فتجده ينجز العمل بعد شدة وطول انتظار ليس لشغل يشغله بل لتماطل مذموم لا طائل ولا نفع منه يعتقد أنه يزيد من أهميته!

وقد وصف الله الناس على ثلاثة أحوال، الظالم لنفسه والمقتصد والمسابق بالخيرات وهذه الأصناف الثلاثة موجودة في الصفّ الجهادي، والاقتصاد يصبح مرضا عند البعض فتجده يقتصد في كل معروف أو عمل جهادي لله، لا يطرق أي باب خير إلا إذا كان له أمر صريح به، لا يكلف نفسه أكثر مما عنده وهمته محدودة. ويصبح هذا الأمر مذموما حين يمنع الخير عن غيره مع أنه بإمكانه المساعدة والتخفيف من معاناته، وهذه صورة معاكسة لرسالة الجهاد السامية التي تطلب منا التعاون على البر والتقوى والمسابقة بالخيرات، ومن يلتفت قليلا لسير الجيل الأول من الصحابة

سيعجب من شدة مسابقتهم لبعضهم البعض في الخير حتى في أبسط الأعمال الخيرية والخدمات. وهذا لعمق فقههم لهدي الإسلام وشريعة الرحمن.

الدواء:

يوعظ المصاب بهذا المرض وينصح في الله ويبيّن له خطأه في العمل فإن استمر يجبر على حضور دورات شرعية لإعادة الإعداد الشرعي ليجدد همته ونيّته ويدرك مهمته في هذا الجهاد فإن استمر على حاله، يفصل من كل منصب أو وظيفة يمكن من خلال تسويفه واستهانته بعمله أن يؤثر على سير عجلة الجهاد. ويحول لمنصب لا يؤثر فيه الكسل والتسويف إلا على نفسه.

كما يفضل أن يخضع المصاب للعمل في فريق جماعي .. ما يفرض على المجاهد التعاون مع إخوانه لإنجاز عمله .. فيكتسب صفات إخوانه بالتدريج ويتخلص من مرضه.. كما يتمّ الدعاة والمصلحون دورهم بالدعوة والتحريض والتعليم بالاستعانة بمختلف الوسائل الدعوية المتاحة ليذكروا بأهمية المسابقة في الخيرات للمجاهد.

ولو تأملنا حال هذا المصاب، لوجدناه كمن يقول: إنني في غنى عن تلك الحسنة، فلننظر الفرق بين هذا النوع من القلوب وتلك القلوب التي فقهت فعملت فسبقت نحسبها، قال الحسن البصري –رحمه الله-: لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى، لخشي أن لا ينجو من عَظَمِ ذلك اليوم، وكما في

حديث رواه الامام الترمذي رحمه الله عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال: سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها.

وأما معاذ بن جبل – رضي الله عنه – فلما حضرته الوفاة جعل يبكي فقيل له: أتبكي وأنت صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنت من الإيمان ما أنت بمكان تُحسدُ عليه؟ فقال: ما أبكي جزعاً من الموت أن حلَ بي ولا دنيا تركتها بعدي، ولكن هما القبضتان، قبضة في النار وقبضة في الجنة فلا أدري في أي القبضتين أنا.

فهل بعد هذه الحقيقة من اقتصاد، بل تشمير وكد وجد بلا كلل ولا ملل، ومسابقة في الخيرات ... ولو نفخ في الصور وكان في يد أحدكم نبتة فليزرعها ذلك أننا بحاجة لكل حسنة ولكل معروف ولكل عمل صالح لعلنا ننجو!

16. الغلو والتنطع:

يتشرب القلب الغلو تدريجيا ويتعقد حاله أكثر حين يجد صحبة تعينه على ذلك، وقد يصل الأمر في الغلو إلى تحريم أغلب الحلال وتكفير أغلب المسلمين! ولا يستهان به فهو مرض فتاك قد ذاقت الأمم السابقة من ويلاته ولا زالت أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – تتواتر في التحذير منه، ومن أبرز صفات المصاب بهذا المرض، التنطع والجدال، والجرأة على التكفير والتفسيق بلا بيّنة أكيدة، ثم الجرأة على سفك الدماء إن ترسخ لديه قناعة بأنه على حق.

الدواء:

لعل الغلو من أفتك الأمراض التي قد تصيب قلب المجاهد وإن تمكن منه واستشرى في الصفّ الجهادي فإن العواقب تكون وخيمة ووخيمة جدا، ذلك أن المجاهد مطالب بالعزة على الكافرين وخفض الجناح للمؤمنين (مُحَمَّد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)[41] بينما أول أعراض هذا المرض هو إظهار العزة على المؤمنين والاستهانة بأعراضهم ودينهم وتسفيههم وتفسيقهم لشبهة أو تهمة لم تثبت وقد يصل الأمر إلى التكفير والقتال وغيره من فساد عظيم في الأرض، فلا أفضل من الوقاية قبل التفكير في العلاج، ذلك أن المرض إن تمكن من القلب فلا نملك له إلا أن نسأل الله له الهداية والرحمة، فإن القلوب تضرب عليها أبواب بأقفال من حديد ولا يرى صاحبها إلا ما يراه الغلو، ولا شك أن العلاج يحتاج لنشر للعلم وحزم ولكن لا تزال الوقاية خير من كل علاج.. فعلى الدعاة والمصلحين والشيوخ التركيز على أخطار الغلو وتعميم الدورات الشرعية والدروس والمواعظ والوسائل الدعوية بهذا الشأن لرفع درجة الدراية واليقظة بين المجاهدين وتحصينهم ضد هذا المرض والذي هو أصل الخوارج الذين كبّدوا الأمة المسلمة الكثير من الدماء والفساد في الأرض ما يفسر تحذير الرسول – ﷺ– لنا منهم أشد التحذير حتى وصفهم بكلاب أهل النار!

---

[41] الفتح 29.

وقفة

فمن أصاب قلبه مرض أو أكثر من هذه الأمراض لا يُسلّم قيادة أو إمارة حتى لا نعين شيطانه عليه ولا نسمح بتعدي ضرره لمصالح أكبر، إلا إن تخلص من هذا الداء وتواضع لله فيرفعه كما يرفع الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا. ثم على القيادة الجهادية الحرص على تفعيل دور الدعاة بين الصفوف ورصد أي تغيير في سلوك المجاهد لاستدراكه وإعانته على الثبات أو علاجه بما يناسب ظرفه وحالته، ولا يخلو ميدان جهاد من مرض ولا تسلم نفس مجاهد من خطر، ولكن المراقبة والعناية والوقاية والعلاج تحقق نتائج مبهرة في سلامة وحصانة الصفّ الجهادي. فيا فرسان الدعوة كونوا على ثغوركم، واحفظوا إخوانكم من الزلل والافتتان، قوموا الإعوجاج ، وسدوا الثغرات وانصحوا في الله وادعوا بحبّ، إن الجهاد لا يقوم بلا دعوة بلا يقظة بلا محاسبة.

الوقاية خير من العلاج

لقد عرضنا أهم الأمراض التي تهدد قلب المجاهد في الساحة الجهادية كما عرضنا أنواع العلاجات لها.. لكن الوقاية تبقى أفضل من العلاج، وتقول الحكمة (درهم وقاية خير من قنطار علاج) فعلى المجاهد أن يتحصن ويطعّم نفسه من أي داء يتسلل لقلبه فيوهنه ويضيع عليه أثمن اللحظات في سباقه للجنة ورضى الرحمن ويعطله في رحلة إقباله لما عند ربه، وأول خطوة عليه التركيز عليها هي إيقاد نار الخشية من الله في قلبه وليتذكر كيف كان السلف الصالح في ذلك على علو همتهم

وقوة مسابقتهم، قال يزيد بن حوشب -رحمه الله-: ما رأيت أخوف من الحسن (يقصد الحسن البصري) وعمر بن عبد العزيز، وكأنّ النار لم تُخلق إلا لهما. وهما من هما في الصلاح والعلم والعمل نحسبهما.

وفي الحديث المشهور عن النبي -ﷺ-: "الحلال بيّن والحلال بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل ملك حمى، وألا وإنّ حمى الله محارمه، ألا وانّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب".

وفيما يلي أهم الأسباب التي على المجاهد الأخذ بها حتى يحفظ قلبه من الإصابة بالمرض:

1. القرآن

لقد اتفق العلماء والعارفون على أن القرآن الكريم هو أول علاج ناجع لأمراض القلوب وللوقاية منها أيضا وفيما رواه البيهقي في الشعب والقرطبي في التذكار: (أن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قالوا: يا رسول الله فما جلاؤها، قال: تلاوة القرآن). وقال تعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ..) وفي تفسير هذه الآية قال الإمام القرطبي -رحمه الله-: أي شفاء للقلوب

بزوال الريب منها وكشف غطاء القلب عن الشك .. في حين قال الإمام ابن كثير -رحمه الله-: " .. أي يذهب ما في القلوب من أمراضها".

فأيها المجاهد إياك والتفريط في ورد القرآن اليومي، إياك والاستغناء عن أهم سبب للثبات وحفظ القلب من الأمراض. داوم عليه حتى يسكن حبه في قلبك وتدمن على تلاوته، ومن سكن حب القرآن في قلبه وأدمن تلاوته لا يستطيع العيش بدونه وتضيق نفسه إن تأخر عنه، فطوبى لأهل القرآن. قال تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون).[42]

2. الذكر

قال تعالى : (والذاكرون الله كثيرا والذاكرات) وقال أيضا: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وللمؤمن حصن حصين من الأوراد وأذكار اليوم والليلة، لا يحرص عليها إلا بصير ولا يغفل عنها إلا مغبون. فاستعن بها يا مجاهد وإياك أن يفوتك وردك منها فهي كالماء للجسد، وشتان بين حياة يعطرها الذكر وحياة وحشة تفتقر للذكر، ويزيد المقام أهمية قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[43] فذكر الله سلاح عظيم من أسلحة المجاهد لا يمكنه الثبات والاستمرار والانتصار بدونه. وحين نذكر (الذكر) فلا

---

[42] البقرة 121.
[43] الأنفال 45.

شك أن الاستغفار والتسبيح والحمد وغيرها هي أركان هذه العبادة التي لا غنى للمجاهد عنها وصدق من قال (جمال الأصابع عقدها بالتسبيح). أما من خشي الغفلة فليحمل حصن الأذكار معه في جيبه لا يفارقه أبدا وليوقّت منبها يذكره بأوقات الذكر ولا عذر له بعدها.

3. محاسبة النفس

لا يمكن لمجاهد أن يمضي في جهاده العظيم ولا يخضع نفسه للمحاسبة، قال تعالى: (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) وفي الحديث عن أنس الذي رواه الإمام أحمد، قال رسول الله – ﷺ-: (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) وقال ميمون بن مهران – رحمه الله– : (لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه).

ثم لابد من محاسبة قبل العمل قال الحسن – رضي الله عنه– : (رحم الله عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر) ثم محاسبة بعد العمل، لينظر كيف كان أداءه وتقواه وخشيته وإتقانه، ذلك أن المحاسبة تسمح للمجاهد أن يعرف عيوب نفسه، وتحديد نقاط الضعف فيها، فيتمكن من معالجتها ومجاهدتها وتقويم كل اعوجاج يراه .. كما تساعده في معرفة قدر نفسه فلا يستكبر ولا يغتر ويعلم أنه ليس إلا عبدا من عباد الله يرجو رحمته. ولولا المحاسبة لغرق

المجاهد في هواه، وفسد باطنه، وسهّل بذلك لنفسه الانزلاق في الذنوب والمعاصي وهو ذاته الانتكاس، وهذا الأحنف -رضي الله عنه-: يجئ إلى المصباح بالليل فيضع إصبعه فيه ثم يقول: حس، حس! يا حنيف، ما حَمَلك على ما صنعت يوم كذا وكذا ... يُحاسب نفسه، وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) ذلك أن حساب الآخرة أعظم حساب. فمن حاسب نفسه في الدنيا لا شك خفف عن نفسه ثقل ذلك اليوم. ويقول الحسن البصري -رحمه الله -: (لا يليق بالمؤمن إلا أن يعاتب نفسه فيقول لها: ماذا أردت بكلمتي؟ وماذا أردت بأكلتي؟. أما العاجز فيمضي قدما لا يحاسب نفسه) ، ويقول ابن القيم -رحمه الله-: (وأضر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة وتسهيل الأمور فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وإذا فعل ذلك يهّن عليه مواقعة الذنوب وعسّر عليه التخلص منها).. فإن جالست الناس أيها المجاهد فكن واعظا لقلبك فالخلق يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك.

وأفضل ما ننصح به المجاهد في هذا الباب ما قاله الإمام الماوردي -رحمه الله-، حيث قال: (أن يتصفح الإنسان في ليله.. ما صدر من أفعال في نهاره فإن كان محمودا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه.. وإن كان مذموما استدركه وانتهى عن مثله في المستقبل..) وبتفصيل أكثر يقول ابن القيم -رحمه الله-: (هي التمييز بين ماله وما عليه (يقصد العبد) فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه، لأنه مسافر سفر من لا يعود".

4. الصحبة الصالحة

ولأهميتها قال تعالى: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا)[44] فالصحبة الصالحة نصف الطريق، والصاحب الحقيقي هو الذي يعينك على الطاعة ويذكرك بالله وينصح لك في الحاجة ويفي لك بالعهد ويحفظ عليك دينك وصداقتك.. كما يحب لك ما يحب لنفسه. والصاحب من هذا النوع لابد أن تعتني بصداقته وتحافظ عليها ولا تكلفه ما لا يطيق.. ولا تطلب منه المستحيل.. يقول ابن عقيل -رحمه الله-: (الذي ينبغي أن يكون حد الصداقة اكتساب نفس إلى نفسك، وروح إلى روحك وهذا الحد يريحك من طلب ما ليس في الوجود حصوله، لأن نفسك الأصلية لا تعطيك محض النفع الذي لا يشوبه إضرار، فالنفس المكتسبة لا تطلب منها هذا العيار، وقد بينت العلة في تعذر الصفو الخالص، وهو تغاير الأمزجة وتغليب الأخلاط واختلاف الأزمنة والأغذية".

5. الانشغال بطلب العلم

إن لم يكن المجاهد مقاتلا فلا بد أن يكون طالب علم، ولا يمكن أن يكون في غير هاتين الوظيفتين المرتبطتين ببعض ارتباطا وثيقا .. وقد أكد العلماء وأهل الفضل أن المجاهد بغير علم أشبه بقاطع طريق، ولم أر أفضل وسيلة لشغل النفس

[44] الكهف 28.

عن السفاسف ووقايتها من الانتكاس كطلب العلم، قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله– في كتابه "صيد الخاطر": تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به فإذا هو يقوي القلب قوة تميل به إلى نوع قساوة. ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به. فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه وأبتدىء بالتصنيف أرجو أن أتمه فإذا تأملت باب المعاملات قل الأمل ورق القلب وجاءت الدموع وطابت المناجاة وغشيت السكينة وصرت كأني في مقام المراقبة. إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة وأعلى رتبة وإن حدث منه ما شكوت منه. والمعاملة وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم. فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات تلذيعاً لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم. فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور وأن أحضر المحتضرين لأن ذلك يؤثر في فكري ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفكر في الموت ولا أنتفع بنفسي مدة".

وشتان بين من يعبد ربه بعلم ومن يعبده بلا علم! ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فإن كنت أيها المجاهد ترغب في نعيم الدنيا ولذّتها فأقبل على العلم وجاهد في سبيل ربك، تطأ الجنّة قبل الآخرة.

6. العمل

لا يعني العلم شيئا في ميزان الإنجاز إن لم يقترن بالعمل، فاحفظ ما شئت من علوم ومتون وأحاديث، فإن لم تعمل بها فما نلت حظا من علمك، بل أصبح وبالا عليك. وأفضل قاعدة يعمل بها المسابقون هو الحرص على العمل أكثر من العلم، فمهما فاتك من العلم فلا يفوتنك من العمل، ولهذا يقال العلم البصيرة ذلك أن المبصر لا يفوته العمل بما علم. والعلم إن اقترن بالعمل كان الحصن الحصين ضد الغفلة والتقهقر والتراجع في المسيرة الجهادية وكفى به سببا للاجتهاد في طلبه. وليعود المجاهد نفسه صحبة الكتاب في سفره وترحاله ورباطه ذلك أنه خير جليس للمجاهد يتزود منه ويدون الفوائد ويعلمها من حوله فيكسب أجر صدقة جارية.

قال شقيق بن إبراهيم –رحمه الله-: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل والمسارعة في الذنب وتأخير التوبة والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

7. الحزم مع النفس

لابد من حزم مع النفس لتحقيق التغيير والتخلص من العادات السيئة التي دأبت عليها، كحب الإمارة والمدح والكبر والرياء والطمع وغيرها من مفسدات

لنعيم الجهاد، وقد قيل بالرياضات القهرية تخرق العوائد الحسيّة، فلابد من ترويض هذه النفس بصوم وقيام ليل وبخلوة وصمت واعتكاف وسنن ونوافل. قال عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-:

أقسمت يا نفس لتنزلن .. لتنزلن أو لتكرهنّه

إن أجلب الناس وشدّوا الرنّة .. مالي أراك تكرهين الجنّة

8. الدعاء

قال تعالى : (قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم)[45]... إنه لا يمكن لمجاهد أن يمضي في سبيل الجهاد بدون قاعدة (إياك نعبد وإياك نستعين) ولا يمكن أن يطلب الإستعانة بالله بدون دعاء، فالدعاء هو المفتاح لكل المطالب والأماني والأحلام التي يرجو تحقيقها المرء، ولا يمكننا تخيل مجاهد لا يدعو ربه أو يكسل عن الدعاء، ومن التزم الدعاء لاقى بركة ويسرا يغبطه عليهما العارفون، فإن شئت أيها المجاهد أن تتعظ فانظر إلى حال الأنبياء وهم صفوة الخلق وأقربهم من الرّب، ومع ذلك لا ينفكون عن عبادة الدعاء في الرخاء والابتلاء، فكن داعيا لربّك في وقت استجابة ووقت خلوة ووقت استشعار للإيمان ووقت التقاء للصفوف ووقت يحيط فيه بك الناس وفي كل وقت .. كن حامدا وشاكرا وسائلا وراجيا، فإن فوائد الدعاء لا تخرج عن ثلاث، استجابة أو أجر أو ذخر.

[45] الفرقان 77.

كلمة

إن المتبصر في أمراض القلوب وطبائع النفس البشرية يجد أن الحاجة مستمرة لأهل الدعوة والإصلاح والتحريض والتقويم لحفظ الصف الجهادي حصينا متينا، ذلك أن الطريق بحاجة وباستمرار لخوف صادق وخشية محمودة، وتآلف بين المجاهدين وانسجام يقوى به البنيان، وأن الشيطان لم يكن ليكسل عن استدراج قلوب المجاهدين والكيد لهم والتفرقة بينهم وتأخيرهم عن السباق، ولا أبالغ إن قلت أن الجهاد والدعوة توأم لا يستمر أحدهما بدون الآخر.

أما من ابتلي بمرض من أمراض القلوب، فعليه بالخلطة التي لخصها أحد العارفين قائلا: يا هذا عليك بعروق الاخلاص وورق الصبر وعصير التواضع، ضع هذا كله فى إناء التقوى وصب عليه ماء الخشية وأوقد عليه بنار الحزن على المعصية وصفه بمصفاة المراقبة، وتناوله بكف الصدق وأشربه من كأس الاستغفار وتمضمض بالورع وأبعد عن نفسك الحرص والطمع، تشفَى من مرضك باذن الله.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي رحمه الله، قال رسول الله -ﷺ-: "من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا وإن سلعة الله غالية ألا وإن سلعة الله هي الجنة".

فكم نحن بحاجة لمراقبة الله عزوجل في حركاتنا وسكناتنا وخلواتنا وفي كل شئون حياتنا ... أن نعبد الله كأننا نراه فإن لم نكن نراه فإنه يرانا! وهذا هو أعلى مقامات الطاعة. فسارعوا إلى مغفرة من ربكم عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

واستعينوا بالله ولا تعجزوا فقد قيل للحسن –ﷺ–: سبقنا القوم على خيل دهم ونحن على حمر معقرة فقال إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم.

الخاتمة

إن عرض قائمة هذه الأمراض التي تتربص بقلب المجاهد وكذا علاجاتها لهو من باب التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ولا يعني وجودها في الصفّ الجهادي أن نغفل عن روعة تلك النفوس التي صانت سلامتها وحفظت قلوبها من الداء. نعم إن في الجهة المقابلة لمشهد المرض، صورة مشرقة للنفس المؤمنة المجاهدة الباذلة، والتي لا يسعنا المقام هنا لضرب الأمثلة الرائعة لها بل هي نماذج عظيمة تستحق تدوينا منفصلا يسلط الضوء على نخبة المرابطين على ثغور الجهاد اليوم، إنهم أقوام علموا وفقهوا وعملوا فانشغلوا بالعمل عن كل شيء .. منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا، ولولا هذا الجمع من الصادقين نحسبهم لما حلمنا باستمرار الجهاد ولما تلذذنا بطعم الانتصارات ولما دوّنا تاريخا مشرّفا تفتخر به الأجيال.. وبهم يحلو الاقتداء.

فأيها العامل لدينه، الحامل لهمّ أمته، المجاهد في سبيل ربّه، وطّن نفسك على احتمال المكاره دون سآمة أو ملل، وانتظار النتائج بدون استعجال أو يأس، ومواجهة الشدائد مهما ثقلت بقلب لم تلزق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة، كن ملتحما بالعصبة المؤمنة العاملة ومحصنا نفسك من الغفلة وأمراض القلوب

المزمنة .. لا تركن لحظ أو عجب بالنفس بل اجعل التقصير محرضا لك والرجاء قائدا لك والعمل قبلة لك.. ولا تحصي فيحصي الله عليك، واختم على اجتهادك وبذلك بصدق الدعاء، واعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين.

وختاما هذه وصية ذهبية من الشيخ العلامة حمد بن عتيق حملتها أبيات منظومته الرائعة عن أمراض القلوب وعلاجها قال فيها:

حمـدتُ الذي أغْنى وأقْنى وعلّـما   وصيَّرَ شُكْـرَ العَبْدِ للخيرِ سُلّـــما
وأُهدي صلاةً تسْتمرُّ على الرضى   وأصحابه والآل جمعـاً مُسلِّمـــــا
كما دلَّنـــا في الوَحْي والسُنَنِ التي   أَتانا بها نحوَ الرَّشـــادِ وعَلَّمــــا
أزالَ بها الأغلاف عن قلب حائـرٍ   وفتَّحَ آذاناً أُصمّـــتْ وأَحْكَـمَــا
فيا أيُّها البــاغيْ استنـــــارةَ قلبهِ   تدَّبرْ كـــلا الوحيين وانْقَــد وَسَلِّما

فعنوان إسعادِ الفتى في حيـــــاتهِ — معَ اللهِ إقبـــــالاً عليـــه مُعَظِّـــما
وفـاقدُ ذا لاشكَّ قدْ مــــــــاتَ قلبُه — أو اعتلَّ بالأمراضِ كالرَّينِ والعمى
وآيــــــة سقم في الجوارح مَنْعها — منافعـــها أو نَقْص ذلك مثلــــــما
وصحتـــها تُدرى بإتيـانِ نفْعــها — كنطقٍ وبطشٍ والتصــرف والنما
وعين امتراضِ القلب فَقْدُ الذي لـه — أُريدَ من الإخلاصِ والحــبّ فاعْلَما
ومعرفــــة الشــــوق إليه إنابـــة — بإيثار ذا دون المحبات فاحكـــــما
ومؤثرُ محبـــوبٍ ســوى اللهِ قلبُه — مريضٌ على جـرف من الموت والعمى
وأعظم محذور خفى موت قلبــــه — عليه تشغّل عن دواه بضد مـــــا
وآيــــة ذا هون القبائــح عنـــده — ولولاه أضحى نادمـــــاً متألمــــا
فجامعُ أمراضِ القلـــوبِ إتباعها — هواهـــا فخالفـــها تصحّ وتسلـــما
ومن شؤمـــه ترك اغتذاءٍ بنـــافع — وترك الدوا الشـافي و عجز كلاهما
إذا صحَّ قلـــبُ العبد بانَ ارتحالُه — إلى دارهِ الأخرى فراحَ مُسَلِّـــــما
ومن ذاك إحســاس المحب لقلـبهِ — بضربٍ وتحريكٍ إلى الله دائـــــما
إلى أن يُهنَّا بالإنابـــة مُخبــــــتاً — فيسكــــــن في ذا مطمئناً منـــعّما
وفيها دوام الذكــــــرِ في كلِّ حالةٍ — يرى الأنس بالطاعــــات لله مغْنما
وَيَصْحــــب حُـــراً دَلَّه في طَريقه — وكــــــان معيناً ناصحـــاً متيمّما
ومنها إذا ما فاته الوِرْدُ مــــــرةً — تراه كئيباً نــــادما متألـــــــــماً
ومنها اشتياقُ القلبِ في وقتِ خدمةٍ — إليـــها كمـــشتدٍ به الجوعُ والظَّما
ومنها ذهاب الهَمِّ وقــــتَ صلاتهِ — بدنيــــاه مرتاحـــاً بها متنعـــما
ويَشتدُّ عنـــها بُعــــــدَه وخروجه — وقــــد زال عنه الهم والغم فاستما

فَأَكْرِمْ بهِ قلباً سليـــــماً مقـــــرّبا إلى الله قد أضـــحى محبــا متيَّمـــا
ومنـــــها اجتماعُ الهـمِّ منه بِرَبِّه بمرضاتـــه يسعى سريـــعاً مُعظِّما
ومنـــها مُراعـــاةٌ وَشُحٌّ بوقتـــه كمـــا شحَّ ذو المال البخيل مصمما
ومنـها اهتمام يُثمر الحرص رغبة بتصحيح أعمـــال يكون متـــــمما
بإخـــلاص قَصْدٍ والنصيحة محسناً وتقييـــــده بالإتبـــاع ملازمـــا
ويَشـــــهدُ مـــع ذا مِنَّة الله عنده وتقصيـــره فـــي حقِّ مولاه دائما
فَسِـــتٌ بها القلـبُ السليمُ ارتداؤه ويَنْجو بـــها من آفةِ الموتِ والعَمَى
فيــــارب وفقنـــا إلى مـا نقوله فمـــا زلتَ يا ذا الطَّوْل برّاً ومنعما
فإنــــي وإنْ بَلَّغـــتُ قـولَ محققٍ أُقـــرُّ بتقصيري وجهـــلي لعلم ما
ولمَّـــا أتى مثلي إلـــى الجوِّ خالياً من العـــلمِ أضْـحى مُعْلنـاً مُتكلِّما
كغـــابٍ خـــلا مِنْ أُسدِهِ فتواثبت ثعالـــب ما كانت تطا في فنا الحمى
فيا ســـامع النَّجوى ويا عالم الخفا سألتـــــك غفراناً يكـــونُ معمَّما
فمــــا جرَّني إلا اضطرارٌ رأيتـه تَخوَّفــــت كوني إنْ توقفتُ كاتما
فأبْديْـــتُ من جرَّاه مزجا بضاعتي وأمَّلْـــــتُ عفواً مِنْ إلهي ومَرْحما
فمـــا خـــاب عبدٌ يستجير بربـه ألـــحَّ وأمْسَى طاهر القلب مُسْلِما
وصلُّـــــوا على خيـــر الأنـام كذا الآل والأصحاب مادامت السما

الفهرس